حياتي في الإعلام

حياتي في الإعلام

عارف حجاوي

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1554-5

جميع الحقوق محفوظة

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

التعليم 9

سيرة إعلامي آخر: أندرو مار 15

ما العمل؟ الصحافة 21

رجْع إلى رحلتي في الحياة 35

زواج وعمل 39

أنا وأنت واللغة الإنجليزية 41

الأداء الإذاعي صوت وصمت 47

الكتابة 59

العودة إلى قصة حياتي 67

في قناة الجزيرة 75

رئيسًا للتحرير 81

مرة أخرى في الجزيرة 85

أنا مَنْ ضيَّع في الأوهام عمره 91

أجلسُ الآن بلا الفيسبوك، بلا تويتر، بلا واتساب، وقُصـــارَاي أنني قادر على أن أدقَّ هذه الحروف على الحاسوب.

أقرع باب الستين وأنا ألتفت ورائي فأرى ريحًا عاتية تســـرع نحوي، قد يُكتب لي أن أَلِجَ الباب؛ ولكن الريح ســـتلِجُه ورائـــي، وعليَّ أن أركبها وإلا دفعتني من خلفي وألقتني على وجهي أرضًـــا؛ إنها ريح التغيير التي تفرض على المرء اكتساب مهارات جديدة.

كان أبو جدِّي حائكًا يخيط الملابس العربية من قمـــاش نـــاعم مخطط، وركب جدِّي الريح في مطلع القرن العشرين فبدأ يخيط البدلة الإفرنجية، وجاء أبـــي فتفنن فيها. ثم كأنما وقف الزمن عند البدلـــة الإفرنجية: بنطال ومعطف وتحت المعطف صُدَيْريٌّ له جيـــب صـــغير لساعة تُربط بسلسلة، ولم يَعُدِ الصديري في زمن أبـــي ضربة لازب، لم يَعُدْ يطلبه مع البدلة إلا الشيوخ، كنت أتفرَّج على أبـــــي وهـــو يرسم الخطوط على القماش "بحجر العَلام" ناظرًا في دفتر القياسات. فإذا ما انتهى من الرسم أهوى على القماش بمقصه الحديدي الكـــبير بجرأة عجيبة.

جدِّي يحُثُّني على تعلُّم المهنة، وأبـــي يُبعدني عنها قـــائلاً: إنهـــا تُحتَضَر. وكان أبـــي على حقٍّ. كان يقصُّ القماش لعشرين عـــاملاً في مخيطته، ولم أره ممسكًا بالإبرة يومًا، ثم أخـــذت المهنـــة تمـــوت، وهجم "الجاهز"، وتناقص العاملون في المخيطة سنة فسنة، حتى رأيتُ أبـــي يقص لنفسه ويُمسك بالإبرة ويخيط وحده، مات وليس عنده

عامل واحد، وقبل أن يموت كان قد وجَّهني مع أخوين وأختين لي إلى الهواية الفلسطينية المفضلة: التعليم الجامعي. وما مات حتى رآنا جميعًا قد حملنا الكرتونة.

التعليم

دخلتُ المدرسة وأنا في السابعة، و لم أكن قبلها مررت بما يمرُّ بـــه أطفال اليوم من أبناء الطبقة الوسطى والمترفة من حضـــانة وروضـــة أطفال إلا لمامًا، لم أستطع في الصف المدرسي الأول أن أتعلم شـــيئًا، كنتُ أرى المعلم يخطُّ أشياء على اللوح لا أعرف ما هـــي، وجـــاءت شهادة نهاية العام وعليها الدرجات فكانت درجتي السابع والثلاثين من بين نحو أربعين ولدًا، و لم يتحسَّن وضعي كثيرًا في الصف الثاني غـــير أنني عرفتُ أن مجموع الأحرف يُصبح كلمة، فككت الحـــرف كمـــا يقولون، وفي العطلة الصيفية بين الصف الثاني والثالث كانت هـــوايتي الأثيرة التفرُّج على الصور الكثيرة التي حفلت بها المجلات، وكـــان في بيتنا مئات المجلات، وخصوصًا مجلة "العربـــي"؛ التي كـــان والـــدي يحتفظ بأعدادها. وكنت -فيما يبدو- أقرأ السطر الذي تحت الصورة.

وعدنا إلى المدرسة. إلى الصف الثالث الابتدائي. ودخل معلـــم اللغة العربية في اليوم الأول. وكان -فيما أحسب- يُعلي قدر نفســـه عن أن يكون معلم صبيان. جلس متأففًا إلى كرسيه، وأمرنا أن نخرج دفاترنا وأن نكتب موضوع إنشاء. وكتبنا. وكأنني أهيت موضوعي سريعًا فلكزت جاري وتكلمت معه، فأشار إليَّ المعلم حانقًا أن تعال وهات دفترك.

قال لي: اقرأ بصوت عالٍ. وقفتُ أمام الصف ودفتري بيدي، وقرأت. لا أتذكر عمَّ كتبت، ولا كيف قرأت ما كتبت. غير أنني أتذكر أن المعلم رفع بصره إليَّ وسدَّد نظرة فيها معنى، وقال: اجلس. وجلستُ بلا عقوبة. وأحسستُ أنني كتبت شيئًا جيدًا. في نهاية الصف الثالث جاءت درجتي الثالث على الصف.

أذكر هذا الموقف المبكر؛ لأنه كان عنوانًا على طريقتي في اكتساب المعرفة. وأقفز إلى السنة الختامية في المدرسة.

كنا على أعتاب امتحان التوجيهية، ختام المدرسة، وسألني جدي: ماذا ستدرس في الجامعة؟ فقلت له: لا أريد الذهاب إلى الجامعة. قال: لماذا؟ قلت: لأنني أريد أن أتعلم.

لا أظن جدي فهم مقصدي، وأنا شبه متأكد من أنني لم أقل ذلك الشيء متحذلقًا، قد علمتني المدرسة أنها لا تُعَلِّمك شيئًا، إلا إذا أردت أنت أن تتعلَمه، وتعلمتُ كثيرًا من الكتب وقليلاً جدًّا من المعلمين، كنت أتحرَّق لتطليق المدرسة كي أطالع كتبًا أكثر، وعندما بدأنا نؤدي امتحانات التوجيهية كنت أقضي الصباح في قاعة الامتحان، والعصر في المكتبة العامة أقرأ الكتب، لا بل كنت في تلك الفترة أستعير الكتب لكي أقرأ ليلاً دون اكتراث لهذه الامتحانات التي ترتعد لها فرائص الآخرين، وكانت النتيجة متوسطة، ولم أحفل بها، وتهربت من الجامعة نحو سنة، ثم أَجاءني ضغط الأهل إلى الجامعة، ولم يتغيَّر سلوكي؛ لهذا قضيتُ نحو تسع سنين قبل الحصول على الشهادة الجامعية الأولى، التي كانت الأخيرة أيضًا، وشهدت سنواتي الجامعية هذه تنقُّلاً بين بلد وبلد، وجامعة وجامعة، وتخصص وتخصص.

أيقنتُ -وما زال اليقين يزداد كلَّ سنة من السنوات الأربعين التي انصرمت منذ أن تركت المدرسة- أن خير طريقة لاكتساب المعرفة هي أن يكتسبها المرء بنفسه، وبأقل قدر من الإرشاد، وأيقنتُ أن الرغبة هي الدافع الأكبر، وأن سياسة العصا والجزرة في المدارس يجب أن تحل محلها سياسة الجزرة والجزرة، وأيقنتُ أن معظم ما ندرسه في المدارس والجامعات لا قيمة له.

عندما أنهيت سنتي الجامعية الأولى أحسست بالملل، تركت الجامعة -جامعة بيرزيت قرب رام الله- ومضيت جنوبًا ستة عشر كيلومترًا إلى القدس، كان هذا في أواسط السبعينات، و لم تكن قبضة الاحتلال الإسرائيلي شديدة كما هي اليوم، وأنا أكتب في خريف 2014.

توجهت إلى مكتب جريدة الشعب، وطلبت عملاً، قال لي رئيس التحرير فؤاد رزق: ماذا تريد أن تعمل؟ قلت: محررًا. غرور الشباب. رمى إليَّ مجموعة أوراق فيها أخبار وتحليلات من وكالات الأنباء، وفيها منسوخات باليد نقلاً عن الإذاعات، وطلب إليَّ أن أصوغ منها مادة للصفحة الأولى، وفعلت، و لم يكن الرجل مستاء؛ ولكنه شطب عنواني الطويل: "الرئيس السوري حافظ الأسد يتوجه غدًا إلى موسكو". وكتب فوقه: "الأسد إلى موسكو غدًا".

وكان درسًا.

ظللت بعد هذه الحادثة أربعين سنة أخادع نفسي. ظللت أشتغل بالأخبار في الصحف والإذاعات والتلفازات، ولست برجل أخبار؛ لكن هذا فقط هو العمل ذو القيمة في الأماكن التي عملت فيها، لم أكن أبحث عن ذاتي بأيِّ جهد حقيقي، بل رميت نفسي في

معمعان الوظائف، وتقلبت فيها فاقدًا الإرادة، فاقـــدًا الهـــدف، ولا أزال.

الناجح حقًّا من يعرف قدر نفسه، فيضع هدفًا نصـــب عينيـــه ويسير نحوه بخط مستقيم، و لم أكن قط ناجحًا، فإنْ كنتَ مصرًّا على متابعة قراءة قصتي فاعلم أنك لن تتعلم منها كيف تنجح، ربما فقـــط كيف تتجنَّب الفشل.

العمل في الصحافة يتطلب منك أن تتقن لغتـــك العربيـــة، وأن تحسن لغة أخرى تستقي بها الخبر العاجل؛ ولكنه يتطلب شيئًا آخـــر أهم: أن تكون راغبًا في المتابعة. أن تكون حِلْسَ أخبار. هذا الـــذي يسمونه بالإنجليزية "نيوز أنيمال". عاشرت بعضًا مـــن مهووســـي الأخبار. يسمع الواحد منهم تصريحًا لوزير الخارجية فيقفز عن مقعده قائلاً: "ههنا تطور غير متوقع في موقف الدولة الفلانية، ففي تصريحه السابق قبل خمسة أسابيع كان موقفه كذا. هلمَّ! علينا ملاحقة الأمر بمقابلة مع المحلل الفلاني، وترتيب تقرير يوضح تطور موقـــف هـــذه الدولة من القضية الفلانية، إلخ." الذي يفعل ذلك هو حلس الأخبار، هو الصحفي الإخباري الحق.

لم أكن –ولن أكون– حلس أخبار، وحتى يوم الناس هذا فأنـــا أفضل قراءة جريدة الأمس، أقرأ التاريخ بنهم، ولا أتابع الأخبار، هذا أنا، هكذا خُلقت.

ولتطمئن بالاً إلى أنني لا أُورد عليك نقائصي كي أفاجئـــك في منتصف الطريق بشيء كنت فيه عبقريًّا؛ فقد كُتب عليَّ ألَّا أكـــون مبدعًا في أي شيء، غير أن ما مررت به قـــد يرشـــدك إلى طريقـــة تتجنب بها التشتت، ما أصعب أن تكون في الوسط، لا أنت جاهـــل

أخرق تؤدي ما يُطلب منك من عمل كيفما اتفق لك، وتعيش عيشة مخلوقات الله التي رِزْقها على الله؛ ولا أنت مبدع خلاق تعيش حياتك صاعدًا درجة بعد درجة وعيناك إلى الأعلى، في الوسط تُجَرِّب هذا وذاك وتنجح في شيء؛ لكن بعضَ نجاح، وتفشل في شيء؛ لكن بعضَ فشل.

فهل انقطع طموحي، وانتكست همتي، وقعدت بي الحال إلى أنني كالهباءة العالقة في الهواء، لا هي تصعد إلى الأعالي ولا هي تحطُّ على الأرض؟

لا. أتحرَّق إلى أن أصنع شيئًا، نعم، حتى وأنا أعالج باب الستين، ولعله مجرد احتراق داخلي يجعل المرء يتوهج؛ لكنه لا يسير به نحو شيء ذي بال.

لكن؛ رويدك عزيزي القارئ المتطلع إلى سيرة إعلامية لرجل خنق أربعين سنة في المهن الإعلامية، لا تنصرف عني؛ فالإعلام ليس كله أخبارًا، والذي لم يحقق النجاح الاختراقيَّ في مسار معين قد يكون حقق نجاحات متوسطة، وقد يكون تعلَم الكثير من الفشل، ومن نصف النجاح.

نعم، عندي ما أقوله؛ ليس فقط عن نفسي، ثمة إعلامي نجح نجاحًا باهرًا، وقد نتعلَّم أنا وأنت شيئًا منه.

سيرة إعلامي آخر: أندرو مار

يشغل بالي هذه الأيام صحفي بيني وبينه مَشـــابه، غـــير أنـــه ناجح جدًّا؛ ذكْره ملءُ السمع والبصر، وإنجازاته الصحفية والأدبيـــة ضخمة.

منذ أسابيع وأنا أتابع سيرته قارئًا نحو ألفي صفحة من قلمـــه، ومشاهدًا أكثر من عشرين ساعة وثائقية من إبداعه.

أُحَدِّثكم عن أندرو مار، وأحدثكم عنه لأنه آخر مكتشفاتي؛ لا أستطيع أن أكبح جماح القلم؛ أنا منذ نحو شهرين أعيش حمَّى أندرو مار، وقَدَرك أن تصاب معي بجرعة مخففة منها؛ ثم إنَّ سيرته لن تكون استطرادًا ضمن هذا الكتيب، فالرجل إعلامي.

أندرو مار شبه زميل من زملائي في هيئة الإذاعـــة البريطانيـــة؛ ذلك أنه عمل فيها بعد خروجي منها، وهو يصغرني ببضع ســـنين، وهو بخلافي مشهور؛ لكنه مثلي مشتت الجهود، وقد حقق النجـــاح الباهر، لم ألتقِ به قط، ولكنني عرفته خير معرفة في الأشهر الأخيرة.

هو مثلي مغرم بأن يعترف بمواطن قصوره، يقول لك: إنـــه لا يعرف لغة أجنبية، ولا يعزف آلة موسيقية، ولا يحمل شهادة جامعية عليا، وجاءته سكتة دماغية قوية مؤخرًا قام منها كالحصان، بعـــد إذ أنذر الأطباء أهله مرتين خلالها بأنه لن يعبرها.

أندرو مار اشتغل بضع سنين رئيسًا لتحرير جريدة الإندبندنت، وقال عن نفسه: إنه كان أسوأ رئيس تحرير. فهو من النوع الذي يريد أن يعمل العمل بنفسه لا أن يترك زملاءه يعملون مكتفيًا بمجرد الإشراف عليهم.

احتضنت البي بي سي أندرو مار، وعمل فيها محررًا سياسيًّا، وهذا منصب كبير يحتله شخص واحد في التلفزة الأولى للبي بي سي، وصاحبه يقف أمام مجلس العموم، أو أمام نُزُل رئيس الوزراء في 10 داوننغ ستريت، ويقدم رؤيته للحدث السياسي.

ثم كان لأندرو مار برنامج سياسي يحمل اسمه: "أندرو مار شو"؛ وهو برنامج سياسي محض يُبَثُّ يوم الأحد ويشاهده مليونا شخص في المعدل.

في شهر مايو/أيار من عام 2014 كان أحد ضيوف البرنامج رئيس الوزراء ديفيد كاميرون، وفي ختام فقرته قال له أندرو مار: "رئيس الوزراء، رئيس الوزراء معذرة، اسكت، أدركنا الوقت". وكلمة أسكت ترجمة غير دقيقة، فهي بالإنجليزية "شت أب"، التي تقع في مكان ما بين اسكت واخرس.

وكان رد رئيس الوزراء المسكين: "المعذرة، فقد أطنبت". وجاءت للبي بي سي ست وعشرون شكوى على المذيع. وكان رد المحطة: "ليس في الأمر قضية".

واستمرَّ أندرو مار في عمله كالمعتاد، واستمرَّ -أيضًا- يُقَدِّم برنامج سياسيًّا على الراديو القومي الرابع، وأنجز صاحبنا في الوقت نفسه عشرات البرامج الوثائقية التي أزارتْه كل القارات -بلا استثناء- قدَّم برنامجًا عن تاريخ بريطانيا من إحدى عشرة ساعة وثائقية،

والبرنامج يستند إلى كتابين كتبهما مار. وقدَّم برنامجًا آخر عن تاريخ العالم في ثماني ساعات، وله عن ملكة بريطانيا ثلاث ساعات، وكل هذه البرامج الوثائقية تستند إلى كتب كتبها صاحبنا بقلمه، وكتبها أولاً، وقبل التصوير. وهو يقول: إنه لا يستعين بباحثين، بل يكتب كل كلمة بنفسه. ولا حاجة به إلى أن يخبرنا بذلك؛ فالقارئ كتَبَه يقف أمام أسلوب هو سيل العرم، هو الحديث الطليُّ الشائق، الذي يرغمك على أن تقلب الصفحة وراء الصفحة مرجئًا عَشاءك، ناسيًا عطشك، ويأتيك النوم فتنهض من فراشك كي يطير النعاس فتتابع هذه الأسطر التي تتدفق زخات من المعرفة، ومن الرؤية الثاقبة. أكاد أزعم أن في كل سطر من سطوره، في كل كتاب من كتبه، بريقًا. وهو يكتب بلغة عالية، تجتمع فيها فصاحة الكلمة والروح الوثابة إلى الخفة والطرافة.

ولعل أندرو مار لم يَعْدُ الحقيقة عندما قال: إن كتابه "تاريخ العالم" استند إلى مطالعته ألفي كتاب. وقد جاءه تاريخ العالم بالسكتة الدماغية، التي قام منها لكي يقدم حلقات "عظماء سكوتلندا"، الوثائقي الذي جاء يمهِّد للاستفتاء على انفصال سكوتلندا عن بريطانيا، وجرى الاستفتاء في 18 من سبتمبر/أيلول 2014، وكنت في هذا اليوم في سكوتلندا، وسهرت حتى الفجر أتابع الفرز، وقالت سكوتلندا بـ 55%: إنها تريد البقاء ضمن المملكة المتحدة، وكان صاحبنا في هذه الليلة ساهرًا في أحد مراكز الفرز، وقدم تقريرًا مدته نحو دقيقة وبعض الدقيقة أسوة بكثيرين غيره من الصحفيين. وأندرو مار سكوتلندي المولد والنشأة والنسب؛ لكنه يسكن الآن في لندن؛ ورغم اشتغاله الذريع بقضية الاستفتاء، فلم

يصدر عنه أي قول يمكن أن يستشف المرء منه موقفًا من القضـــية، فالصحفي -كما يقول أندرو مار في كتاب آخر له بعنوان "مهنتي"- يجب أن يحتفظ بآرائه لنفسه.

ولماذا أكتب عن إعلامي بريطاني في مطلع كتيب أكتبـــه عـــن تجربتي في الإعلام؟ قد أسلفت القول: إن سيرة هذا الرجل وأعمالـــه تشغل بالي منذ أسابيع. لكنني أيضًا أغبطه؛ ولئن فاتني -وقد جرفتني السنون- أن أتخذه مثلاً أعلى؛ فإنني أرى فيه نموذج الصحفي المثقف، ولا أطالب كل زميل من زملائي العرب بأن يكون مثله في إبداعـــه الأدبـــي، ولا في إلقائه المميز؛ حسبه أن يسعى ويجتهد اجتهاده.

وإذ كنتُ ذكرتُ إلقاءه فلا أستطيع المضي دون أن أصف لك صاحبنا البريطاني وهو مُقعٍ لابسًا إزارًا مخططًا يطبخ رأس سمكة مـــع فتى بنغالي في إحدى عشوائيات دكا عاصمة بنغلادش، ويحادث الفتى بكل احترام، ويتضاحك معه، وقد التفَّ حولهما صبية الحي.. ذلـــك في وثائقي آخر له باسم "ميغا سيتيز"، مدن عملاقة. وفي بيت الفـــتى البنغالي نام أندرو مار، وأبقى معه كاميرًا يدوية، يُصَوِّر بها نفسه بعد انصراف فريق التصوير.. يصحو من النوم ويُصَوِّر نفسه في العَتَمـــة وهو يقول: تفترسني أسراب البعوض الآن، وتسرح تحت ســـريري الجرذان التي يجدر تسميتها بالقطط لضـــخامتها؛ ويوجـــه الكـــاميرا الشخصية نحوها. والوثائقي عند أندرو مار عامر بالإلقـــاء، عـــامر بالمواقف، تراه يصف معركة ضمن الحرب العالمية الأولى زاحفًا على بطنه لابسًا ملابس الجنود، ثم في مشهد لاحق تراه بقبعة عالية وقـــد ارتدى الردنغوت والقبعة العالية واقفًا في مجلس العموم مقلدًا في لهجته ونستون تشرشل. في وثائقياته يتجاوز مار الخط الفاصل بين الإلقـــاء

والتمثيل؛ لكنه عندما يُلقي نصه يُذَكِّرني فورًا بكلمات سمعتها من أندرو آخر؛ هو أندرو تاوسيغ، مدير القطاع الأوروبي في هيئة الإذاعة البريطانية قبل عشرين سنة.

عند تسلُّم تاوسيغ مهامه اجتمع بنا -مع أن القسم العربي الذي كنتُ أعمل فيه ليس ضمن القطاع الأوروبي لست أعلم ما الذي جعلني أحضر ذلك الاجتماع- وقال تاوسيغ: نحن -البريطانيين- لم تعد لنا شهرة في الصناعة، ولم نعد الأمة الرائدة في أوروبا، لكننا ظللنا سادة الكلمة.

لا أنصرف عن أندرو مار إلا مثقل القلب؛ فأنا أريد أن أرى مذيعًا عربيًا مثله، غير أنني أدرك أن مار استمتع بجو فيه للصحفي حرية كبيرة، وفيه مؤسسة قوية تدعمه، وعاش في بلد يصدر فيه كل عام 150 ألف عنوان جديد.

ولا أنصرف عن أندرو مار إلا بعد أن أصف كتابه "تاريخ العالم" بأنه تحفة أدبية وعلمية؛ والوثائقي المصاحب للكتاب لا يغني عنه بحال، رغم تصويره بتقنيات هوليوودية. أقول هذا ولست بالغرِّ الذي لم يقرأ مثل هذه الكتب قبلئذٍ، أقول هذا ونصب عيني كتب هـ. ج. ويلز وأرنولد توينبي وجون روبرتس عن تاريخ العالم؛ وأما كتاب أندرو مار فقوامه القصة، وهو ينفي الخرافات التي تملأ كتب التاريخ نفيًا، حتى ما كان منها مشهورًا شهرة تجعله في الأذهان كالحقيقة، وقد أدهشني مار وهو يقص عليَّ قصة قومي.

كنت أقلب الصفحة وراء الصفحة من كتابه "تاريخ العالم" ودقات قلبي تتسارع كلما اقتربت من عصرنا الذهبي نحن، من زمن النبوة؛ خفت أن يُسيء إلينا ويُسيء فهمنا مثلما فعل هـ. ج.

ويلز، ثم رأيت مار يندهش مثلما اندهش العالم كله لسرعة انتشار الإسلام. حسنًا، هو في هذه لا يختلف عن هـ. ج. ويلز؛ لكن مار بدأ يكيل لنا -في الصفحة بعد الصفحة، وفي الحقبة بعد الحقبة- العبارات الناصعة التي تدل على فهم عميق، وتدل على أن الرجل ليس أسير الدوغمات الغربية المتحجرة؛ ورغم اندهاشه أدرك أندرو مار أن الإسلام انتشر لأن وراءه فكرًا، وفَهِمَ بعمق أن الإسلام لم ينتشر بالسيف وحده.

عند هذا الرجل السكوتلندي نحن العرب، ونحن المسلمين، صناع حضارة ونقلة حضارة، ليس هذا فحسب بل نحن خير مَنْ نشر العلم والنور في عالم مظلم، وأكثر من هذا نحن أفضل مَنْ حَكَمَ شعوبًا أخرى بتسامح لا مثيل له في التاريخ.

ليس لهذا وحده أحببت هذا الكتاب بصفحاته الستمائة حبًّا جمًّا؛ بل لأنه مكتوب بعبارة حارقة حينًا راقصة حينًا، مشعة بالذكاء والبريق والفصاحة في كل حين، ومكتوب بفهم عميق، وباستقراء بديع للتاريخ.

أبحث بمصباح ديوجين عن الإعلامي العربي الذي يكون حرًّا وممتلئًا بالثقافة والموهبة، وأبحث عن مترجم ينقل هذا الكتاب إلى العربية.

وأعود بك إلى ذلك الشخص الذي تأبى نفسه الأَخبار كل الإباء؛ لكنه رمى نفسه في حمأة الصحافة؛ أحدثك عن نفسي، كما هو شرط هذا الكتيب.

ما العمل؟ الصحافة

لم أعمل في جريدة الشعب في القدس في أواسط السبعينات سوى أشهر، كان ابن صاحب الجريدة يحثني على الكتابة وكنتُ آبى، وكان المقال الوحيد الذي كتبته مقالاً عن عبد الحليم حافظ غداة وفاته، وكنت -لشِقوتي- مغرمًا بالموسيقى والغناء.

ثم رحلتُ إلى الكويت ولي من العمر إحدى وعشرون سنة، عملت في وزارة الدفاع خطاطًا، وكنتُ من هواة هذا الفن، وعملتُ بجانب الوظيفة في مجلة "صوت الخليج"، وكتبت في المجلة مقالاً وحيدًا أظنه كان عن الرحابنة وموسيقاهم.

كنتُ أُدرك في أعماقي أنني -برغم تمكُّني من الفصحى- لا أملك الأفكار الناضجة؛ وكأنني أحسست أن اللغة وحدها لا تصنع مقالاً، لقد قرأت في حياتي بعد ذلك بضعة آلاف من المقالات التي ليس لها من فضيلة سوى أن صاحبها متمكِّن من العربية الفصحى بعض التمكُّن، وفي كثير من الأحيان بمساعدة من المدققين اللغويين، وكانت إضاعة وقت.

كنتُ أجلس في مكتبي بوزارة الدفاع الكويتية (شعبة التجنيد) أحارب جيش الملل، حتى يحين وقت الانصراف، قرأت ديوان المتنبي هناك، وكتبت آية قرآنية على لوحة كبيرة وأطرتها

بإطار حسن، وعلقتها في المكتب، فأمر مدير مكتب العقيد باللوحة فنقلت إلى مكتبه، ولعلي داخلني السرور بذلك، أو لعلي وجدتُ تصرفه غير لائق، لا أدري كيف كان شعوري، لكنني انصعت، غير أنني كنت أكاد أتمزق مللاً، وجاء اليوم غير الموعود.

سمعت طرقًا خفيفًا على طرف المكتب، فرفعت رأسي، وإذا بالنقيب المفتش واقفًا بإزائي، لم أكن أنام في المكتب؛ بل لعلها كانت أول مرة أنام فيها، قال لي النقيب: ماذا تفعل؟ قلت له: نائم.

وانفتل منصرفًا.

استدعاني العقيد إلى مكتبه الواسع، وبعد توبيخ خفيف أراد برفق أن يُصلح حالي، فعاجلته بطلب الاستقالة، وبالطبع كان لي ما أردتُ، يعلم الله أنه لم يأتِ أي مفتش دوام إلى مكتبي طوال تلك الأشهر سوى تلك المرة الوحيدة، وأتى وأنا نائم.

ومن الكويت إلى الأردن، وفي الأردن اتفقت مع شابين من بلدي فلسطين على أن نغزو أوروبا، الثقافة لا تكتمل إلا بمعرفة أوروبا، وفي أوروبا مغريات جمة؛ ففيها الماء والخضرة، ولم نكن من عشاق الطبيعة، وفيها العمل، وكنا من أنصاف بل أرباع المثقفين الكسالى، الذين يريدون أن يتفرَّغوا للفكر؛ بينما يعمل الآخرون، وفيها النساء الحسان، ولم نكن من المتبتلين.

حاولنا في القنصلية الدنمركية ولم ننجح، وفي سفارة ألمانيا الغربية نجحنا، كان هذا في مطلع الثمانينات، ولم تكن أوروبا قد أوصدت أبوابها في وجه أبناء الدول المتخلفة مثلما توصدها اليوم، أحدنا اكتفى بشهر من ألمانيا وعاد، وسار في درب الحياة ليُصبح

وزيرًا ناجحًا في فلسطين، وأحدنا ما زال هناك حتى يوم الناس هذا، ويعمل في حقل الإعلام في الدويتش فيلله، وثالثنا -وهو موضوع حديثي- درس تاريخ ألمانيا ثلاث سنوات حتى أخفق، فانقلب على عقبيه عائدًا إلى بلده.

نلت عند الأستاذ كالنبرغ شهادة عن فصل دراسي، وناقشني في أطروحتي الصغيرة مبديًا ملاحظة عابرة، غير أنها استقرت في وعيي، وعرفت أنها سلبية، قال لي: هذا الأسلوب في المعالجة قريب من الصحافة. وكان موضوع البحث ثورات عام 1848، وأثرها على مملكة بروسيا الألمانية.

حضرت فصلاً عن جمهورية فيمار، فيما بين الحربين العالميتين، ولم أكتب فيه بحثًا، وحضرت سيمنارًا متقدمًا مع الأستاذ شرويدر ذي الكاريزما، الذي يركض في الممرات ركضًا، ويسجل ملاحظاته بقلم رصاص طوله عقلة إصبع، وأخفقت إخفاقًا ذريعًا، قال لي شرويدر: المسألة ليست اللغة، بل المنهج. وفهمتُ كلامه؛ لكن ماذا أفعل؟ منذ طفولتي وأنا أحب القصة ككل الأطفال، ولم أستطع أن أكبر، كان موضوعي في ذلك البحث: البيروقراطية في عهد فريدريش الأكبر، وحوَّلت سيمناري إلى حكايات، وما هكذا التاريخ، كما يُريده الأكاديميون.

انصرفتُ من تلك الجلسة التي عرضتُ فيها بحثي أجر أذيال الخيبة، وضعتُ كل أوراقي الجامعية ومسوداتي في صندوق أسود كنتُ أحتفظ فيه بحذاء عتيق، وكان هذا آخر عهدي بجامعة دارمشتادت، وقضيتُ سنة أخرى، أو نحو ذلك، أعمل في غسل الأطباق في مطعم الجامعة أيام الدوام، وفي المصانع في أيام العطلة،

وظللت أقرأ، وآية ذلك أنني عندما غادرت ألمانيا شحنتُ إلى بلـــدي ستة وثمانين كيلوغرامًا من الكتب.

لم أفهم نفسي آنذاك، و لم أعترف لأحد بخيبتي الأكاديميـــة، و لم أبرر الأمر أمام نفسي، ولكنني الآن أفهم.

لست بالأكاديمي، ولا أريد أن أعرف العوامل السبعة التي أدَّت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، ولا أريد أن أحلل التاريخ، ولا أن أضـــع الفرضيات الأكاديمية، ثم أنفق عقدًا من الزمن لكي أُثبـــت صـــحَّتها أو فسادها؛ التاريخ عندي قصة، وعلم النفس قصة، وعلم الاجتماع قصة، وحتى اللغة قصة، وفيزياء الجسيمات قصة، وكذا الكيمياء.

أنت الآن تقرأ هذه الأسطر، ما يشدُّك إليها، إنْ كنتَ بقيـــتَ معي، إنما هو القصة.. فأنت تُريد أن تعرف ما الذي حدث لي بعـــد هذا الفشل الكبير.

القصة هي الزمن، هي السبب والنتيجة، وليس لأي قصة نهايـــة سعيدة؛ لأن النهاية هي الموت، وليس لأي قصة نهاية حزينة؛ لأنه بعد الموت تأتي حياة جيل جديد، والمدار في المعرفة إنما هو على القصـــة الواقعية؛ فأما تحليل المؤرخين لقصص التاريخ، فهو كتحليل النقـــاد لروايات المبدعين، يكفيني من المؤرخ أن يروي القصة متجرِّدًا مـــن الهوى، وأن يكون ذكيًّا مليئًا بالمعرفة حتى يَلُم أطراف القصة.

القصة في الإعلام مهمة أهميتها في الأدب؛ فأنـــت في الأخبـــار تحدِّث الناس بما جرى ويجري، وأنت مضطر إلى أن تبدأ قصتك مـــن النهاية، وهذا ما يُسَمِّيه الذين يرتزقون بتدريس الإعلام في الجامعات الهرم المقلوب، على أن التسمية الإنجليزية للخبر طريفـــة، يســـمونه "ستوري"؛ ومعناها "قصة".

وعلى الرغم من أن الخبر قصة نهايتها مفضوحة من السطر الأول؛ فالصحفي والإذاعي والتلفزي والإنترنتي مطالبون جميعًا بأن يدسوا في أثنائها عناصر التشويق، وقد أشرفت بضع سنوات على إنتاج عدد من الأفلام الوثائقية، وكنت أشدِّد كثيرًا على عنصر القصة.

يعرف المنتجون أن الشريط الوثائقي مجموعة من الحقائق التي تناصر قضية معينة، أو تصف حدثًا كبيرًا، أو تشرح تاريخ وأهمية شخصية من الشخصيات، وكنت دائمًا أقول: هذا حسن؛ ولكن افعلوا ذلك عن طريق القصة. ولكم أن تخالفوا في ترتيب الأحداث بعض المخالفة، فقد تروون لي قصة أديب عظيم بادئين من اللحظة التي دخل فيها السجن، ثم تعودون إلى طفولته، ثم تقفزون إلى ما حققه من مجد أدبي بعد خروجه من السجن، ولكم في الوثائقي أن تصنعوا الكثير -الاحتمالات لانهائية- ولكن قصُّوا عليَّ قصة، وإن أعيتكم القصة فاجعلوا في الوثائقي خيطًا رابطًا من قصة جانبية.

أذكر أنني كنتُ أشاهد في ألمانيا برنامجًا من برامج السَّمَر "توك شو" يستضيف الفنان فالأديب فالسياسي في خلطة عجيبة، وقد جعل المخرج لهذا البرنامج خيطًا رابطًا وهميًّا؛ كانت تجلس في إحدى الحلقات سيدة بدينة بيديها صنارتان تصنع بهما سترة صوفية، ورغم ترهُّلها ونظارتها السميكة كانت يداها تنسجان بسرعة عجيبة، لم تفه السيدة بحرف واحد، ظلَّت تنسج والبرنامج ماضٍ في طريقه، يأتي ضيف وينصرف ضيف، وفي الحين بعد الحين تزورها العدسة وتُرينا أين وصلت في عملها؛ وما انتهى البرنامج إلا وهي ترفع بين يديها السترة وقد تمَّت نسجًا، وكان المخرج يبتدع في كل حلقة شيئًا يجعله خيطًا رابطًا، ولعمري كنتُ أستمع ببعض الشغف إلى ما يقوله

الضيوف الأكارم؛ ولكن ما كان يشدني للمتابعة أثناء سير البرنامج إنما هو ذلك الركن الذي يجلس فيه شخص يصنع شيئًا له بداية، وله.. نهاية. وتعلمون أن بعض البرامج المشابهة جَعَلَتْ ضمن فريق التقديم رسامَ كاريكاتير تزوره العدسة بين الفينة والفينة.

ولئن لم يحالفني التوفيق دائمًا في بناء مقالاتي التي أكتبها على هيئة قصة؛ فإنني أزرع في نواحٍ شتى من المقال بذورًا يفهم القارئ أنها ستنبت شيئًا فيما بعد؛ آخر هذه المقالات مقال طويل كتبته عن التعليم، وقد بدأته بوعد للقرَّاء بأنني سأصبُّ اللعنات على رأس النظام التعليمي، وسأقدِّم البديل، وسآخذ -أيضًا- بعبارة الغزالي: "ليس في الإمكان أبدع مما كان". وبدأت طبعًا بالثالثة، وأرجأت اللعنات الموعودة حتى النهاية.

أوجعني قلبي من رداءة النظام التعليمي في بلادنا؛ وهذا ليس استطرادًا، فأنا ما زلت في حيز القصة وضرورتها. هي في الصحافة مهمة، وهي في التعليم بالغة الأهمية، ومدار الأمر على مقدار ما في القصة من الحقيقة؛ فلو قصصت عليك قصة حرب يونيو/حزيران على طريقة راندولف تشرشل ابن السياسي البريطاني المخضرم في كتاب له لظننتَ أن دولة إسرائيل كانت بريئة من كل عدوان؛ ولو رويت لك قصة هذه الحرب على طريقة الإعلام العربي لظننتَ أن العرب لم يرتكبوا خطأ واحدًا؛ لا في الاستعداد، ولا في تقدير قوَّة العدو، فهل ثمة طريقة لرواية القصة بتجرُّد عن الهوى، وبأمانة علمية؟ الأمر نسبي.

أميل إلى رفض مصطلح "الرواية" في التاريخ والسياسة؛ فقد أسرف أهل الأكاديميا في السماح لكل طرف بأن تكون له "روايته"

الخاصة، وقد امتطى الإعلاميون في الغرب هذه المطية؛ لكي يسوغوا مظالم تبلغ حدَّ المجازر، فلا تقول لهم: إن الحرب الفلانية عدوانية. حتى ينطلقوا للبحث عن رواية الخصم، فيمنحوها من الوقت والحيز ما يمنحون قولك.

أثر في نظرتي إلى قضية التوازن في الإعلام كتاب أصدره أكاديميان من غلاسغو عام 2004، زارني أحدهما وأهداني منه نسخة، اسم الكتاب: "أخبار سيئة من إسرائيل"، وفي اسمه نكتة لغوية، فهو ليس مجموعة من الأخبار السيئة؛ بل مجموعة من الأخبار التي صيغت صياغة سيئة، الكتاب يفضح بتوثيق دقيق طريقة تغطية الإعلام البريطاني للاحتلال الإسرائيلي، تقرأ الكتاب وفي ذهنك أن البي بي سي والآي تي في -وهما مؤسستا التلفزة الكبريان في بريطانيا، وكانتا حتى عهد قريب الوحيدتين اللتين تقدمان الأخبار للجمهور البريطاني- محايدتان متوازنتان، وتكتشف أن هذا محض وهم.

من التوازن الكاذب أن يسوي الإعلامي بين الجلاد والضحية، ومن التوازن الخادع أن يعرض الإعلامي للروايتين عرضًا متساويًا.

لقد عاش الإعلام عصورًا كان فيها أداة تضليل ساذجة، وكثير من منابره اليوم أدوات تضليل واعية.

أساس الهوى المصلحة.

رأيت ذات يوم رجلاً في حالتين اثنتين: كان طالبًا في الجامعة، وكنت له زميلاً، أجلس إليه نتعشى ونشرب الشاي ونتحادث طويلاً، وأَضْرَبَ الطلبةُ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها احتجاجًا على رفع الأقساط الجامعية، فكان صاحبي شديد الحماسة للإضراب يسوق كل حجة في تأييده، وتركت تلك الجامعة واغتربت عن البلاد بضع

سنوات، ثم إني رجعت إليها طالبًا من جديد، وكان صاحبي قد أصبح أستاذًا، غير أنني عدت إلى مجالسته كما كنا نفعل، وجاء يوم أضرب فيه الطلبة إضرابًا مشابهًا لإضرابهم قبل سنوات، وكنتُ قد عدت من غربتي رائق البال وقد زايلتني حماسة الفتى، ورأيتُ صاحبي ينتفض غضبًا من هؤلاء الطلبة "غير المسؤولين"؛ الذين يعطلون "المسيرة الأكاديمية"، إلخ.

كانت تلك الجامعة إذا وقعت في العجز المالي صرفت للأساتذة نصف مرتب، فها قد عرفنا مصلحة صاحبنا في المرة الأولى ومصلحته في المرة الثانية، وقد وصفنا لك الضخَّ الإعلامي الذي ينبعث من حنجرته في كل مرة من المرتين.

لا بأس بالضوابط يضعها الإعلاميون ويقيدون أنفسهم بها، يقهرون ميلهم الطبيعي للتحدث بلسان المصلحة الوقتية. وقد أحسنت البي بي سي عندما قالت: نحن محايدون، غير أننا نرى العالم من هنا.. من لندن. وأحسنت أكثر عندما قالت: نحن نبثُ بما لا يتعارض والمصلحة الوطنية. تانك العبارتان مرقومتان في أدبيات تلك المؤسسة، والاعتراف بالقصور فضيلة. نعم؛ فالحياد التام مستحيل، ولابُدَّ لكل مؤسسة إعلامية من مجاراة مصالح معينة.

أعرض لموقف عشته في البي بي سي؛ فعندما عملتُ في تلك المؤسسة، كان من ضمن الدورة التدريبية التمهيدية أن أخذونا إلى مكان في وسط إنجلترا قريبًا من بيرمنغهام، وقضينا يومين نعيش حياة جعلوها أقرب ما يمكن إلى حياة أهل بلدهم، وجاءونا بنائب في مجلس العموم يحادثنا ويجيب عن أسئلتنا؛ سألته: تدفعون كل هذا المال كي تتحدثوا إلى العالم بثلاث وأربعين لغة، مقابل ماذا؟

أجاب النائب بكلام طويل، ونسيت الآن كل كلمة قالها؛ ولكنني بعد طول المكث في تلك البلاد، وطوال العمل في تلك المؤسسة، عرفت المقابل؛ إنه ما يسمونه اليوم القوة الناعمة، وما كنا نسميه النفوذ، ولقد كنت أشبِّه القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية بقلم الحبر الجيد؛ الذي يكتب ويسرح على وجه الورقة ولا يُقَطِّع.

يقدم لك المصرف هدية.. عبارة عن قلم حبر جاف في علبة جميلة، وقبل أن تُلقي بالعلبة في سلة المهملات تتنهد، فَلِلَّه كم أنفقوا عليها كي تكون بهذه الأناقة، ومبطنة بالقطيفة! تتنهد مرة أخرى.. ولكنك بالطبع لن تكتب بالعلبة؛ تلقيها، وتكتب بالقلم، فإذا هو قلم فاخر منظرًا، وجيد حقًّا، ومحفور عليه اسم المصرف بحروف بارزة لا تمحي، ويسرق القلمَ زميلُك كالعادة؛ لكن القلم يظل حاملاً اسم المصرف، فماذا ربح المصرف من وراء هذه الهدية؟ هل ستمنعك الهدية من التحول إلى مصرف آخر إذا اقتضت ظروفك المالية ذلك؟ بالطبع لا، القلم يقول لك، ولسارقه: أنا ابن مصرف حقيقي. مصرفي لا يهدي زبائنه قلمًا رخيصًا يتشنج فوق وجه الورقة، ويسير كالسيارة العتيقة، أنا ابن مصرف جاد يعتني بالتفاصيل. هذا القلم ببساطة يجعل اسم المصرف ثابتًا في ذهنك، هو كما يقولون: دعاية للمصرف.

والقسم العربي من البي بي سي كان كذلك؛ كان دعاية لبريطانيا، حتى لو كان مجرد إذاعة تبث الأغاني العربية، فهو دعاية حسنة؛ لكنه لحسن حظه وحظ دولته، كان يبث الأخبار برؤية بريطانية أيضًا، وكان في الحين بعد الحين يقدِّم برامج ممتعة

عن الحياة البريطانية؛ غير أن راديو لندن كان يحفظ صدقيته بأن يبث تفاصيل السياسة البريطانية بعجرها وبجرها؛ وأذكر ههنا حكاية:

وضعت حرب الخليج الأولى أوزارها، وكنت كبير منتجين في قسم البرامج الإخبارية، وجاءني تقرير عن بحث أجرته مجلة "جين الدفاعية" يقارن بين الدبابة البريطانية تشيفتن ودبابة أميركية لعلها أبرامز، وكان الطرازان معروضين للبيع في الدول العربية؛ التي رصدت سنتئذٍ آلاف الملايين لشراء الأسلحة عقب تلك الحرب، وكان فحوى التقرير أن الدبابة الأميركية متميزة في كل شيء تقريبًا: في قوة النيران والسرعة والمناورة، وكل شيء؛ جاءني الزميل نجا فرج بالتقرير الذي كان مقرَرًا أن نذيعه في البرنامج الإخباري المقبل، وقال لي: لا يمكن أن نذيع شيئًا كهذا.

قرأت التقرير فإذا هو ممتع غاية الإمتاع؛ ولكن إذاعة لندن كانت مسموعة في كل مكان آنذاك، كان عدد المستمعين أربعة عشر مليونًا، وجلهم من كبار السن، وفيهم نسبة كبيرة من صناع القرار في العالم العربي، وأذعنا التقرير، ولم يحدث شيء، وفي أثناء تلك الحرب التي خاضتها بريطانيا ضمن حلف دولي وعربي كنا نذيع مقابلات مع شخصيات تعارض الحرب، هذا كله يعزز الصدقية، ولم أر أي بلد أبرع من بريطانيا في استخدام "عُملة" الإعلام دون تخفيض سعرها بالدعاية السياسية الرخيصة، ثم جاءت الجزيرة فكانت المنافس الناجح الكبير.

وماذا عن حكاية "دس السم في الدسم"؟ تلك التهمة التي كثيرًا ما تُرمى بها وسائل الإعلام الموجهة إلى الخارج، عندما يكون المرء

محاطًا بإعلام "وطني" فيه الكثير من المبالغة والكذب وتشويه الحقائق وتمجيد الحكام؛ فإنه يشعر بأن في الإعلام الآتي من الخارج شيئًا غريبًا، وهذا الإعلام الآتي من الخارج ينطق بالفعل بلسان بلد المصدر، وهو ليس بريئًا، وليس هناك مطلقًا إعلام بريء، ولكل إعلام خارجي طريقته في تمرير رسائله، فكان صوت أميركا مثلاً يقدِم وجهة نظر وزارة الخارجية بفجاجة، وكانت إذاعة الدويتش فيلله تذيع الأحاديث التي تقدِّم وجهة نظر ألمانيا الرسمية، وكانت البي بي سي تقدِّم وجهة نظر بريطانية عامة مكتوبة بأقلام محللين يرون العالم من لندن؛ لكنهم غير مرتبطين بالحكومة؛ والأثر ههنا أقوى؛ لكن ما كانت البي بي سي تذيعه من أخبار وتحليلات كان شديد التأثر بالطريقة التي تفكر بها بريطانيا. نعم؛ هناك لكل وسيلة إعلام رسالة، وجدير بمَنْ يتهم وسيلة إعلامية بأنها تدس السم في الدسم، أن ينظر إلى وسائل الإعلام "الوطنية"؛ ليرى كيف أنها لا تكاد تدس قليلاً من الدسم في السم الذي تبثه؛ وتخطر بالبال هنا حادثة:

ذهبنا يومًا إلى الاجتماع السنوي الذي تستضيف فيه الجالية اليهودية في لندن عددًا من كبار البي بي سي؛ ذهبت إلى الاجتماع، ليس لأنني من الكبار؛ ولكن لتمثيل القسم العربي، احتج أحد زعماء الجالية اليهودية على عدم وجود قسم عبري، ولم يكن الجواب صعبًا، تململ مديرنا الكبير، وقال: هذا سؤال كل سنة، وإليكم جواب كل سنة: كان هناك قسم عبري في الخمسينات، وعندما لم يستطع تحقيق عدد ذي بال من المستمعين أغلقناه، وما زلنا نعتقد أن قسمًا كهذا غير قادر على النجاح.

لابُدَّ أن هذا الجواب كان دائمًا مبعث سرور ليهود لندن؛ فالمعنى الخفي هو أن في إسرائيل وسائل إعلام حرة، ولن يأبه الإسرائيلي بإذاعة تأتيه من البي بي سي.

لعل القارئ -وقد وصل إلى هنا- يسأل إن كنت سأقضي مزيدًا من الأسطر في التحدث عن بريطانيا!

نعم، سأفعل؛ بقدر ما تأثرت بها وبقدر ما تعلمت منها؛ فقد قضيت إحدى عشرة سنة في لندن، وأربعًا أخرى في بلدي مراسلاً لإذاعة لندن، وهذا يترك أثرًا في النفس؛ ولكن ثمة أثرًا آخر كان سيكون، ولابُدَّ له أن يكون، حتى لو لم تطأ قدماي عتبة ذلك البلد.

يقول مثلنا الشعبي: القط يحب خناقه. وثمة عند أهل المستعمرات السابقة نزعة مازوشية لا تخفى، فهم متعلقون بخناقيهم السابقين، وبثقافة أولئك الخناقين. وأنا، مثل أي هندي أو باكستاني، أو جامايكي، فتحت عيني على الدنيا عارفًا أن الإنجليز كانوا هنا، وكانوا سادة المكان.

رحل الإنجليز عن وطني قبل ثماني سنوات من مولدي؛ كانوا في عجلة من أمرهم، ماضين في تقويض إمبراطوريتهم، وكان شعبهم يأكل اللحم، وحتى الخبز، بالبطاقات، وقد جاءتهم حكومة عمالية بزعامة أتلي قليلة إيمان بالإمبراطورية، ومدركة بجلاء أن الإمبراطورية مغرم لا مغنم. ثم إن أميركا بدأت تتحرك كي تخلف بريطانيا، رحل الإنجليز عن بلدي بعد أن سهلوا لليهود الاستيلاء على ثلاثة أرباعه، وكان من نصيبي أن أولد في الربع الباقي.

وجَّه شعبي وشعوب العرب اللوم للإنجليز على تسليم فلسطين لليهود، والواقع أن في هذا قدرًا كبيرًا من الصحة، والواقع

أيضًا أن هناك عوامل أخرى؛ منها تقاعسنا نحن، وتكالب العالم علينا، وخصوصًا أوروبا؛ التي استمرأت تصدير المسألة اليهودية بعيدًا عن أراضيها، هذه مسألة ليست من شرط هذا الكتيب، فنحن ندعها، غير أن عقدة المستعمر السابق شديدة الارتباط بحياة وتفكير كاتب هذه السطور.

اعتزازي بتراثي العربي الحضاري العظيم يقلم أظفار شعوري بالتبعية للمستعمر السابق، تقول خرافة بلدنا: إن الضبع "تضبع" الإنسان. فإذا حملقت الضبع في عيني امرئ ثم مضت، فالمرء يتبعها وهو يقول: يا أبي يا أبي (والضبع في لهجتنا مذكر)، حتى تصل الضبع إلى كهفها والإنسان وراءها وهناك تفترسه.

ولا أرى تعلقنا بالمستعمر السابق إلا حالة "انضباع"، ونصنع لأنفسنا خيرًا أن نستمسك بإرثنا، ونصنع لأنفسنا شرًّا أن ننضبع لإرثنا، ونصرُّ على إعادة الزمن إلى الوراء.

فهل لي أن أصكَّ هنا مصطلح الانضباع؟ أراه أقوى من الاستلاب، أو الاستئسار، أو الشعور بالدونية، أو الاغتراب، الانضباع هو أن تركض خلف القوي المسيطر وأنت فاقد السيطرة على روحك، أن تجري وراء الضبع كي تفترسك، أن تقول للضبع: يا أبي يا أبي.

وقد سعت منظومات فكرية عدة إلى فهم هذه الظاهرة، ولن أفحصها بعمق، مكتفيًا بالقول: إنني واقع تحت سحر المستعمر السابق، وأحاول -بقدر لا بأس به من التوفيق- أن أجعل من تراثي العربي الإسلامي أداة تساعدني في التوازن، ولا أريد لا للمستعمر السابق، ولا للمحتل الحالي، ولا لتراثي أن يضبعني، أريد أن أكون

مستفيدًا من خبرات الماضي، وعيناي إلى الأمـــام لبنـــاء مســـتقبل أفضل.

وسوف أحدثك عما قليل عن اللغة الإنجليزية؛ وقد يكون وقع في نفسك من كلامي السابق أنني أتقنها إتقانًا، وهذا غـــير صـــحيح ألبتة، سأحدثك عني وعن تلك اللغة حديثًا قد يكون من ورائه فائدة.

رجْع إلى رحلتي في الحياة

قد قلت لك: إنني انصرفت عـــن الكويـــت إلى الأردن، ثم إلى ألمانيا الغربية؛ حيث درست قليلاً في جامعة دارمشـــتادت، وإنـــني أخفقت أكاديميًا، ثم حدثتك عن بريطانيا كثيرًا، و لم أقل لك كيـــف ذهبت إلى بريطانيا، فهأنذا أقول لك الآن كيف.

رجعتُ خائبًا من ألمانيا، ليس كل الخيبة؛ فقد رأيت شوارعهم، وعملت في مصانعهم، وعشت حياتهم.

كان من بين عمال مصنع صيانة الدبابات في إيبرشتادت رجل يوشك على التقاعد، كان آنذاك، مثلي الآن، على أبواب الســـتين، كنا نحن العمال الشباب نرفع دولاب الدبابة الذي يزن نحو خمســـين كيلوغراما بالرافعة المدلاة من السقف، ونلقمه الماكينة الضخمة الـــتي تجلوه بضخ برادة الحديد عليه، وكان صاحبنا الألماني الشيخ يُنَحِّـــي جنـــزير الرافعة جانبًا، ويحمل الدولاب بين يديه ويلقمه الماكينـــة، وتراه ينتقل من مشغل إلى آخر كأنه يريد افتراس العمل افتراسًا، إن كنتَ سمعتَ كثيرًا عن اجتهاد الألمان صدِّق.

قد تكاسلتُ في حياتي كثيرًا، ثم جاءني قبل أشهر فقـــط مـــن كتابة هذه الأسطر عمل افترسته افتراسًا، وسآتي علـــى ذكـــره في وقته.

انصرفتُ عن ألمانيا بقلب مثقل؛ فأنا رجل بطيء التعلم، وكنتُ أتمنى أن يطول مقامي سنتين أو ثلاثًا أتقن فيها اللغة الألمانية كما يجب؛ ولكن العثور على عمل أصبح أصعب من ذي قبل لارتفاع معدل البطالة، ولم يعد لي في الدراسة أرب؛ فرأيت أن أعود.

عدت إلى بلدي فلسطين، إلى ذلك الربع من بلدي الذي لم تبتلعه دولة إسرائيل في المرة الأولى، وابتلعته في المرة الثانية وصار تحت الاحتلال، ورجعت إلى جامعة كنتُ قضيتُ فيها سنتين، جامعة بيرزيت، في قرية بيرزيت القريبة من رام الله، رجعت طالبًا بعد انقطاع خمس سنوات قضيتهن بين الكويت وألمانيا، سجلتُ في دائرة اللغة العربية، لا لشيء إلا لأنني كسول؛ فهي لغتي ولن أرهق نفسي في السنتين الباقيتين للحصول على شهادة البكالوريوس التي جعلوها شرطًا لأي وظيفة، وفي مصانع ألمانيا تعلمتُ درسًا مهمًّا هو أن العمل اليدوي مرهق جدًّا لأخي الكتب، وكنت أخا كتب.

رسخَ في ذهني؛ بل في أعماق وجداني، وأنا طفل أن خير ما يصنعه المرء في حياته أن يقرأ كتبًا، وأن يؤلف كتبًا، وظلت هذه حالي حتى اليوم، وقد نشرت قرابة اثني عشر كتابًا ليس فيها كتاب حقيقي؛ كلها شروح وملخصات، والبحث جارٍ في ذهني عن فرصة أؤلف فيها كتابًا حقيقيًّا.

أنهيتُ الجامعة، وجئتُ بأبي وأمي إلى حفل التخرج، غير أنني لم أرتدِ ثوب التخرج، ولا تلك القبعة المربعة، ولا جلستُ على المنصة، ولا أُخذت لي صورة، وفي هذا ما يُنبئك -إن كنت ما زلت بحاجة إلى ذلك- عن مدى تقديري للشهادات الجامعية؛ غير أنني أخذت كرتونة الشهادة من مكتب التسجيل؛ لأنها الوسيلة إلى

الوظيفة، وقيل لي: إن هذه الكرتونة المختومة بختم أحمر ما زالت بحاجة إلى تصديق من مكتب رئيس الجامعة. ذهبتُ إلى مكتب الرئيس، ومن جيب سروالي الخلفي أخرجت الكرتونة ونشرتها بعد إذ كانت مطوية أربع طيات، فصكت مديرة مكتب الرئيس صدرها وشهقت؛ لعلها لم تشهد في عمرها طالبًا يحترم تلك الكرتونة هذا الاحترام.

اشتغلتُ بتدريس اللغة العربية والعلوم والخط العربي للمرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية أربع سنوات في مدرستين؛ واحدة بالقدس، وأخرى في رام الله، وعملت في الجرائد مصححًا وخطاطًا ومحررًا في الوقت نفسه.

عندما أخذتُ أهلي ليخطبوا لي زوجتي -التي ما زالت تحتملني منذ ثلاثين سنة- حلقت ذقني على الكرسي الخلفي في سيارة أبي على الناشف؛ ذلك أنني وقتئذٍ كنت أعمل في ثلاث جرائد في وقت معًا إضافة إلى التدريس، كنت في التاسعة والعشرين.

لم أكن معلمًا ناجحًا، وإن كنتُ أعرف أنني مولود معلمًا؛ المعلم الناجح هو الذي يستطيع أن يختار الطريق الصعب لا الطريق السهل، الطريق الصعب هو أن تضع كل جهدك في دفع الطلبة للتفكير، وفي فتح الآفاق أمامهم، وفي جعلهم يتعلمون، والطريق السهل هو أن يغلب على ذهنك أن تُثبت لهم أنك عبقري زمانك؛ الطريق السهل هو أن يكون هدفك نفسك، والصعب أن يكون هدفك طلبتك.

لم أرزق تلك النفس السمحة، ولا رضيت لعبقريتي الزائفة أن تتوارى؛ فإن قرأ كتابي هذا بعض طلبتي فليكن معلومًا لهم أنني تعذَّبت معهم مثلما تعذَّبوا معي.

هذا ليس كتاب اعترافات؛ ولدي من المعايب ما هو أدهى من ذلك، ولن أصرِّح به.

زواج وعمل

يتزوج الرجل المرأة كي يقص عليها بطولاته فتريه أنها تصدقه، وتتزوج المرأة لسبب لا أعرفه، وظن شوبنهاور ونيتشه وعباس محمود العقاد أنهم يعرفونه؛ ربما لذلك لم يتزوج أي منهم؛ قال أوَّلهم: إنك في الزواج تنال نصف الحقوق وضعف الواجبات.

وأنا بعد خدمة ثلاثين سنة في هذه المؤسسة ألين عريكة وأكثر خروفية من أن أقول كلمة في هذا الشأن، وكل ما أرجوه حسن الختام؛ ثم إنني نسوي من النسويين أدافع عن المرأة وعن نيلها المساواة في القدر، ولا أنسى أنني بعد قليل من زواجي سأذهب إلى بريطانيا، التي كانت في ذلك الزمن تحت حكم أقوى رئيس وزراء عرفته تلك البلاد في القرن العشرين: مارغريت تاتشر؛ نعم، أقوى من تشرشل؛ فقد كان في تشرشل من صفات الأنوثة النمطية الكثير، كان نزقًا متقلب المزاج، ماهرًا في اللغة، محافظًا في أشياء عابثًا في أشياء أكثر، سديدًا في رؤيته العامة، عنيدًا، وقادرًا على التنازل عندما يرى ميزان القوى قد اختل، و لم يسمه الروس الرجلَ الحديدي.

ظللتُ أجري فيما بين مكاتب الجرائد ألتقط رزقي، وظلَّت زوجتي تعمل في وظيفتها بجامعة بيرزيت، وبعد سنة رزقنا بمريم، ثم كانت زوجتي حاملاً بسمر، ابنتنا الثانية والأخيرة، عندما عادت من

عملها ذات يوم متعبة كما يجب أن تكون الحامل بعد صعود ستين درجة، قبل أن تدخل غرفتها قالت لي: "قبل أن أنسى.. مم!" وبحثتْ في قعر حقيبتها عن قصاصة، ونبذتها إليَّ.

القصاصة إعلان من مجلة "هنا لندن"، التي يصدرها القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، يطلبون مترجمين، كتبتُ لهم، فكتبوا لي، وشعرتْ زوجتي بمزيج من ندم أن مرَّرتْ إليَّ هذه القصاصة.

وحُدِّد لي موعد لأداء امتحان في الترجمة في مقرِّ المجلس الثقافي البريطاني في القدس، وأديت الامتحان منفقًا فيه إحدى عشرة لفافة، عدَّها القيِّم على الامتحان في المنفضة قبل أن يأخذ الورقة، ثم يفتح النافذة على مصراعيها.

أنا وأنت واللغة الإنجليزية

عنوان هذا الفصل هو عنوان مقال كتبته ذات يوم و لم أنشره حتى الساعة؛ ولكن هذا الفصل ليس فيه شيء من ذلك المقال سوى العنوان؛ فأنا لا أحب أن أخلط جديدَ ما أكتبه لك بقديمٍ كنت كتبته ومزاجي غير هذا المزاج، أحدثك عني وعن اللغة الإنجليزية وعنك أيضًا، وما حشرتك في العنوان إلا لأن هذه اللغة صارت لغة العالم كله، قد اخترع بعضهم لغة لتكون لغة العالم وسماها الإسبرانتو؛ ولكن صعود الولايات المتحدة جعل للإنجليزية هذا المقام، قد تساجلت الإنجليزية والفرنسية سنوات طوالاً، فكانت الفرنسية لغة البلاط في سان بطرسبرغ، وفي برلين أيام نهضة بروسيا، وظلت لغة الدبلوماسية العالمية حتى وقت قريب، وكانت الإنجليزية لغة مهمة في الهند، وما زالت تجبر ما انصدع من الشتات اللغوي في شبه القارة، ومع انهيار الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، أصبحت الولايات المتحدة سيدة العالم؛ ولأنها تتكلم الإنجليزية؛ ولأن العصر الذي سادت فيه كان عصر التواصل؛ فقد أصبحت الإنجليزية أمرًا واقعًا.

أديتُ امتحاني في المجلس الثقافي البريطاني، فجاءني الرد بعد مدة بأنني نجحت؛ سألتني سيدة تقدمت إلى الامتحان نفسه في الفترة نفسها سؤالاً فيه بعض خبث: ألك واسطة في لندن؟ ولسؤالها مبرر؛

فأنا رجل في عمرها، هي درست بالإنجليزية شتى الموضوعات في مدارس خاصة، وتخرجت في الجامعة في قسم اللغة الإنجليزية، وأنا درست في مدارس الحكومة؛ حيث لا ينال المرء من اللغة الأجنبية سوى حسوة الطائر، وتخرجت في الجامعة في قسم اللغة العربية، واشتغلت معلمًا للغة العربية.

أهم مصدر من مصادر معرفتي باللغة الإنجليزية هو اهتمامي بلغتي، باللغة العربية؛ فالراسخ في لغته الأم ينطلق إلى غيرها بقلب واثق، والمترجم الذي يتقن لغته التي يترجم إليها إتقانًا جيدًا لا يضيره أن يكون غير متقن للغة الأخرى كل الإتقان، فإن سمعتهم يقولون – وما أكثر ما يقولون: إن شرط المترجم أن يتقن اللغتين بالقدر نفسه. فاعلم أنهم كذبوك؛ لا، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ثم نعم، صدق الجاحظ عندما قال ما معناه: إن اللغتين على لسانٍ تُدْخِل إحداهما الضيم على الأخرى. ولا بأس أن تكون اللغة التي تقرأ بها أيها المترجم مضيمة بعض الضيم، فأما اللغة التي تكتب بها فلابُدَّ أن تكون متينة، والمترجم ينتفع –علاوة على ضرورة امتلاكه ناصية لغته الأم– بالثقافة الواسعة.

وقد ترجمتُ كثيرًا وأنا أعمل معلمًا للغة العربية، ترجمتُ بحوثًا أكاديمية أزعم أنها شديدة التخصص وبالغة الصعوبة، كنتُ أقرأ البحث وأفحص معاني المفردات الصعبة في المعجم، ثم أستحضر ما أعرفه عن موضوع البحث وتمثل أمامي العبارات العربية، وكان خير معين لي على الترجمة قدرتي على الشعور بجهلي؛ فقد أقف أمام عبارة من العبارات وِقفة طويلة، وأقول لنفسي: جميل أن أزعم أنني أفهم العبارة، هي واضحة من سياق الكلام؛ لكنني في الواقع أحس أن فيها

شيئًا غريبًا، وأطرح من يدي المعجم الإنجليزي العربي، وأفحص في المعجم الإنجليزي الإنجليزي، وأطيل الوقوف على الأمثلة حتى أدرك ما يسمونه بظلال المعاني، تلك الفروق الدقيقة بين تعبير وتعبير.

كنت أقرأ بالإنجليزية، وكان لي صديقان: أحدهما برنارد شو المسرحي الأيرلندي، والثاني سومرست موم القاص الإنجليزي، وقد أدمنت صحبتهما سنين طويلة، أقرؤهما للاستمتاع لا لتقوية نفسي في اللغة الإنجليزية، وقرأتُ بعض الكتب التي تريد أن تعلمك قواعد الكتابة السليمة بالإنجليزية، ولم أنتفع بها كثيرًا، وقرأتُ قليلاً في الجرائد الإنجليزية؛ ولكنني كنت أتقدَّم ببطء شديد.

أحيانًا أضع لنفسي هدفًا: أن تصبح إنجليزيتي في متانة عربيتي؛ وهأنذا الآن أقرع باب الستين وأضحك من نفسي؛ لم أحقق ذلك ولا بعضه، هل سمعت برجل له أُمَّان؟

للمرء أمٌّ واحدة، ولغةٌ أمٌّ واحدة.

لغتك الأم تكتسبها ليس بالتعلم، وليس بالعقل؛ بل تأتيك معجونة بالمواقف التي تعيشها، تأتي الكلمة والعبارة ملتصقتين بالشعور الذي يهزك وينغرس في أعماقك، وقد يحدث في حياتك تشتت لغوي، فتنحرف عن لهجتك الأصلية إلى غيرها بفعل معاشرة قوم من مدينة أخرى، ثم تنحرف عن اللهجة إلى اللغة الفصحى، وتظل لهجتك الأولى منغرسة في أعماقك، وتنغرس فيك اللهجات المتعاقبة، والفصحى أيضًا بدرجات، وهي كلها متقاربة.

بعد أن تمعنت جيدًا في خطاب أولئك الذين قالوا: إن الفصحى لغة أخرى، وإن لهجات العرب المختلفة هي في الواقع لغات. أقول: لا، ثمة رابط قوي، هناك هيكل عظمي واحد، تحس به ولا تراه،

وشاء أنيس فريحة ألا يراه، فأسرف في محاولة خلع العامية اللبنانية عن الفصحى، وجاء مصريون كثر، وقالوا: إن المصرية لغة. غير أنني من التجربة لمست أن العربية بكل لهجاتها لغة واحدة؛ فقد فهمت العراقي والمغربي والمصري بقليل من الجهد؛ ولكن هذا لا يعني أن الطريق أمام تحول اللهجات العربية إلى لغات مسدود، التحول مستمر، والمثال الذي يطرحه أصحاب نظرية "اللهجات لغات" هو اللغة اللاتينية؛ التي أصبحت مع الزمن فرنسية وإسبانية وإيطالية مثال مهم؛ لكننا لم نصل إلى هذا المفترق، ولعل المثال الأقرب هو عامية شرق لندن المعروفة بالكوكني، وعامية غلاسغو.

فهما تفترقان إلى درجة أن بيل برايسون الأديب الأميركي الذي عاش في إنجلترا عشرين سنة قال في كتاب له: إنه لم يفهم من عامية غلاسغو شيئًا. وقد وصف ذلك في صفحتين أو ثلاث، قرأت كتابه ذاك وأنا في غلاسغو، وناولت الكتاب بعد أن فرغت منه لصديقي الغلاسغوي ديفيد، الذي شكوت إليه مرارًا من تعسر فهمي لبعض عباراته، وحرصت على أن أثني أذن تلك الصفحات؛ حتى يعلم صاحبي أنني لست وحدي من يعاني من لهجته، على أن أهل غلاسغو وأهل شرق لندن يقرءون لغة واحدة، وإذا بذل أحدهم جهدًا يسيرًا فهو يتكلم، أو على الأقل يكتب بإنجليزية فصيحة، قل الشيء نفسه عن عامية ميونخ وهامبورغ في ألمانيا.

أظن أن حالنا في العالم العربي اليوم هذه الحال، وقد طرقتْ ذهني هذه الفكرة يوم قرأتُ بضع مقالات وأخبار في جريدة الاستقلال، ثم تركتُ الجريدة من يدي موقنًا أنها تصدر في لندن، ويكتب فيها عرب من الشام ومصر، وعندما عرفتُ أنها تصدر في

المغرب رجعتُ أتفحص عباراتها، فلم أجد شيئًا سوى الفصحى التي تعرفها كل الجرائد في كل العالم العربي.

قد تمكنت مني لهجة مدينتي، مدينة نابلس في فلسطين، فقد عشتُ فيها حتى الثامنة عشر من عمري، ثم عشت في رام الله، وتزوجت من القدس، وصادقت ناسًا من كل فلسطين، وأصبح لساني خاليًا من بدوات لهجتي الأولى، على أنني فقدتُ براءة الكلام، ووجدت في الفصحى ملجأً طيبًا، لن تكون الفصحى أبدًا لهجة الخوف والأمل عندي: لو خرج عليَّ أحدهم بسكين في ظلمة زقاق فسوف تخرج من لساني كلمات بلهجة أمي؛ لكن الفصحى لغة الثقافة ولغة التخاطب في الشؤون العامة، ولغة القلم.

فأما الإنجليزية فهي لغة بعيدة، ليست بعيدة بعد الصينية، فبين العربية والإنجليزية وشائج، نحن نكتب بثمانية وعشرين حرفًا، وهم يكتبون بستة وعشرين، وقد كان بين اللاتينية بالعربية تلاقح، وكان بين الإنجليزية واللاتينية تلاقح، وإن لم تظن أن بين الصراط وستريت الإنجليزية -بمعنى شارع- نسبًا؛ ففي الدراسات اللغوية ما يجعلك تظن. وبيننا وبين الفارسية تلاقح ذريع، وغدا الآن ثابتًا أن الفارسية والإنجليزية تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة هي الهندية/الأوروبية.

على أن الصلة بين الإنجليزية والألمانية والفرنسية أقوى بكثير مما بين هذه وبين العربية، ومع ذلك فتلك اللغات الأوروبية الثلاث لغات منفصلة لا يفهم أهل إحداها أهل الأخرى.

نجحتُ في امتحاني، وتلقيتُ عرضًا بالعمل مترجمًا في لندن مع هيئة الإذاعة البريطانية، نجحتُ لأنني اتخذت اللغة الأجنبية "أداة" للفهم لا حلية.

وطرت إلى لندن وفي قلبـــي خوف، فأنا لا أحسن أن أمســـك بيدي نشرة أخبار مكتوبة بالإنجليزية فأقرأها بالعربية، وسرعان مـــا اكتشفتُ أن المترجمين يترجمون، والمذيعين يقرءون من ورق مكتوب بالعربية، ولديهم فرصة لتشكيل الكلمات، وتهيئة النشرة قبل تلاوتها.

بدأت أترجم منذ اليوم الأول، ولم يمر عليَّ شهر أو نحـــوه إلا وكنتُ أقرأ على الميكروفون، فأما في الترجمة فلم أصادف مشـــكلة؛ فالنصوص التي أترجمها أخبار وتحليلات سياسية، وكنتُ ترجمتُ قبلها في بلدي نصوصًا أصعب بكثير، فأما القراءة فعرفتُ عنها أشـــياء لم أكن أعرفها.

الأداء الإذاعي صوت وصمت

بعد سنتين من التحاقي بهيئة الإذاعة البريطانية ناداني زميلي نجا فرج رحمه الله، وقال لي: تعال أسمعك شيئًا. ونجا فرج رجل جمَّاعة، عنده تلك الميزة النملية التي عندي منها قسط لا بأس به؛ فأنا رجل يحب جمع الأشياء، تفرغ علبة الشاي المعدنية فلا أستطيع التخلص منها، وتجتمع عندي علب الشاي وتكركب البيت؛ حتى تتجرأ زوجتي على رميها، وليكن ما يكون. وأجمع الكتب، ومكتبتي اليوم شبيهة بالمكتبة العامة، رفوف متساندة تملأ الجدران، وتغطي بعض النوافذ، والكتب عليها متراصة، وكتبي اليوم تحتوي كل ما اشتريته أو ورثته منذ كنت تلميذًا في المدرسة، ومن حسن حظي أنني أسكن بيتًا من طابقين، طابق للكتب وطابق لنا، ولأن الكتاب العربي متيسر على الإنترنت فقد جعلتني غريزتي النملية أجمع فوق طاقتي على المطالعة؛ فعندي بضع عشرات من آلاف الكتب محشورة في أقراص صلبة، ومثلما رحل نجا فرج سأرحل، ولا أظن كتبي ستمشي في جنازتي، غير أنني أحاول أن أنتفع بها إلى الحد الأقصى وأنا معكم هنا.

نجا فرج كان يجمع كل شيء، لا تمر به قصاصة ولا فاتورة هاتف إلا جعلها في ملف، وقد ناداني في ذلك اليوم وقال لي: تعال واسمع.

وضع شريطًا على جهاز الريفوكس، وضغط على الزر، فإذا صوتي وأنا أقرأ نشرة أخبار قبل سنتين، في بداية التحاقي بالإذاعة، بسرعة مددت يدي إلى الجهاز، وإلى زر التوقف؛ لم أطق أن أسمع نفسي، ما هذا الأداء الهزيل؟! ما هذه القراءة التي بلا روح؟! وهل أنا الآن أحسن مما كنت؟!

بالتأكيد.

سمعت نفسي في قراءات جديدة فعجبت لهذا التحسن الذي لا مزيد عليه، كأن القارئ شخص آخر؛ لكن صوتي ظل صوتي.

وأقفز بك عزيزي القارئ سنتين أخريين كي أوقفك على رأي فتاة جميلة في صوتي؛ قالت لي: أنت تقرأ بشكل جيد؛ ولكن صوتك وِحِش. لماذا قالتها؟ وفي أي سياق لا أعلم، ولكن المرء لا ينسى رأيًا كهذا الرأي، تعلمتُ من قولها ألا أقول لأحد: صوتك قبيح. وتعلمت أن أعرف موضعي من حيث هذه الهبة الربانية التي جاءتني مثقلة بالعاهات.

عرفتُ نفسي، طبيعة صوتي غير جذابة بدءًا، هذا شيء في صندوق الصوت الذي في الحنجرة، وصوتي يشبه كثيرًا صوت أبي وصوت أخوَيَّ، وطبيعة الصوت شيء موروث، وهأنذا أعمل في إذاعة، والورطة أنني أحب الإذاعة والميكروفون، تلك العلاقة/المشكلة يعرفها أهل الراديو معرفة جيدة.. عشق الميكروفون، والويل للميكروفون، وللمستمعين من عشاقه! عاشرت مذيعين ذائبين هيامًا بصوتهم، يغنون النشرة غناء، ورأيت بعضهم يغمض عينيه نصف إغماضة وهو يصف لك حبه للميكروفون، وكيف أنه يتحول إلى كائن مختلف عندما يفتح الميكروفون، عرفت نرجسيين عشقوا

صوتهم، ونرجسيات، وعرفت امرأة تركت زوجها وطفليها وقطعت ألفي كيلومتر لكي تتزوج مذيعًا عشقت صوته، فهل تلومه هـــو إن عشق صوت نفسه؟

رأيت فيلمًا سينمائيًا في بدايته لقطة جميلة، المذيع يقص عليـــك قصته وهو طفل، كان هذا في الخمسينات.

أبوه يعمل محاسبًا في الإذاعة في أميركا، واصـــطحبه معـــه إلى الإذاعة يومًا وهو في سن العاشرة أو نحو ذلك؛ فإذا في استديو الهواء ضجة، دخل الأب مستطلعًا جلية الأمر وتبعه ولده، كان المـــذيع في الداخل، يكلم مهندس الصوت في غرفة التحكم عبر نظام التواصـــل الصوتي، وبينهما زجاج صفيق، المذيع غاضب يصـــرخ بالشـــتائم: الوضع زفت في هذه الإذاعة الكذا والكذا. يقول هذا ويثور بركـــان الغضب في جوفه، فيمسك بأسطوانة الموسيقى ويكسرها على طرف المنضدة، ثم سيل شتائم ثم أسطوانة أخـــرى، وهكـــذا، ومهنـــدس الصوت في غرفة التحكم مسند ظهره غير مهتم كـــثيرًا، وعقـــرب الثواني بدأ يقترب من مرفأ الثانية عشرة.

ودقت الساعة.

فتح المذيع الميكروفون، وبصوت ملائكي يسيل عذوبة ألقـــى بتحية المساء، وبدأ يقرأ نشرة الأخبار، وهو سعيد حقًّا، كانت تعابير وجهه تنضح بالحبور وهو يكلم المستمعين، و"يقص" عليهم نشـــرة الأخبار.

رأى الصبـــي هذا المنظر، وعرف فورًا أنه لن يكون شيئًا عندما يكبر إلا مذيعًا، وكان وككثير من الأفلام الأميركية يقولون لك: إنها قصة حقيقية.

حقيقية أم غير حقيقية؛ للميكروفون سحره.

و لم أكد أبدأ أحس بهذا السحر حتى جاءني ذلك التحذير، وعرفتُ نفسي؛ صوتي ذو طبيعة غير جذابة، فيه قدر من القرار جعل البي بي سي ترضاه؛ لكنه ليس قويًّا، وليست فيه تلك الرنة التي تجعله يقطع الأثير ويصل قويًّا إلى الأذن، فإذا ما قرأت شيئًا وجعلت صوتي ينخفض ويعلو في أداء معبر، فالأماكن التي ينخفض فيها تضمحل اضمحلالاً لعدم وجود سلك معدني بداخل صوتي، صوت المذيعين الذي يوصف بالجميل والقوي مثل السلك المغلف بالمطاط، يعجبك ملمس مطاطه؛ لكن في جوفه سلكًا معدنيًّا يجعله قويًّا علاوة على جماله، وصوتي يفتقر إلى الجمال أصلاً، ثم إنه يفتقر إلى القوة، ثم تأتيك ثالثة الأثافي: لدي بضعة حروف مهشمة، الجيم والشين والسين على الأقل، أعالج الجيم بتعطيشها؛ فيخفى عوارها، وأعالج الشين باجتنابها قدر المستطاع، ولا علاج للسين إلَّا أن أعزيَ نفسي بأن سين محمد عبد الوهاب كانت ثاء، وسين أم كلثوم أصبحت – على طقم الأسنان– ثاء.

لم أعلق على كلمة تلك الزميلة العزيزة؛ ولكنني أبطنت لها ودًّا حقيقيًّا، فمن أهدت إليَّ عيوبي غير قاصدة شرًّا ولا طالبة عداوة جديرة بالمودة؛ كدت أقول لها: ما السامع بأقل دراية من المتكلم. و لم أقل: كنت أعرف عيوب صوتي.

هذا عن الصوت؛ فهل أعلن أمام نفسي الخيبة في الأداء الإذاعي مثلما أعلنتها في الأداء الأكاديمي؟

لا؛ فالأداء الإذاعي أكثر من صوت، هناك عمق الشخصية، وهناك بضع أدوات يمكن أن ترقع بعض الفتوق.

من تلك الأدوات ما يسمونه التلوين الصوتي؛ ومنها التمكن من أساليب الأداء القديمة التي تتيح لك أن تمد حروف العلة بمقادير مختلفة لتعطي المعنى حقه، ولتسبغ عليه أثرًا دراميًّا؛ ومنها القدرة على التحكم في مقادير الصمت في جوف العبارة.

قد سمعتُ من شئتَ من المذيعين ممن لا يستطيعون أن يهجروا طريقتهم المدرسية في القراءة الميتة إلى قراءة تعبيرية معقولة، ولو شئت مثالاً على ذلك فليكن من رجل ألقى أحاديث إذاعية كثيرة و لم يكن بالمذيع؛ ذلكم هو عباس محمود العقاد، كان صوت العقاد وهو يقرأ حديثه أمام الميكروفون كأنه صوتٌ حاسوبي ميكانيكي؛ لكأنما كانت كبرياؤه تمنعه من التعبير، وقد استمعتُ إليه في أحاديث سجلها قديمًا لإذاعة لندن فتأذيتُ من خشونة صوته، وقلة ما فيه من أداء للمعنى.

ويا للعجب! قد سمعتُ من شئتَ من المذيعين يجوِّدون نشراتهم تجويدًا دون أن يفهموا ما يقولون؛ يستعملون كل ما هنالك من أدوات: من تلوين ومن رفع وخفض ومن دسٍّ الصمت، ويبالغون في استعمال هذه الأدوات؛ ولكنهم يجوِّدون ولا يُجيدون، ثمة عنصر آخر.

كانت نشرتي الأولى التي سجَّلها لي زميلي وأسمعنيها بعد حين، مقروءة قراءة رديئة، وعلى طريقة المدارس؛ فأنا لم أدخل إذاعة من قبل، و لم أكن ألقي على طلبتي وأنا معلم النصوص إلقاء متقنًا.

عرفتُ بالحدس أدوات الإلقاء، وجربتها على آذان مَنْ كان يستمع إلى إذاعة لندن، ثم إنني سترت عيوب صوتي بستر آخر، هو الثقافة.

اجلسْ إلى فتاة لم تخرج من قريتها، وتزوجتْ وأنجبتْ واشتغلتْ في الحقل وفي البيت؛ قد تحبُّ منها بساطتها، وتأنس إليها، واجلسْ إلى فتاة خرجتْ من القرية وتعلمتْ واختلطتْ بزملائها في الدراسة ثم في العمل، وقرأت الكتب، قد لا تعجبك؛ ولكنها شخصية مختلفة، إنها شخصية عميقة الغور، فماذا إن كانت فوق ذلك رخية البال، هانئة النفس، متفهمة للآخر؟ ستجد في طريقة كلامها شيئًا مختلفًا.

المذيع الجيد يشرح لك النص شرحًا دون أن يضيف إليه كلمة، إنه يقرؤُه قراءة فاهم، ويلقيه إليك إلقاء فيه قليل من الدراما؛ يجعلك تستمع إليه وتتابعه.

وههنا يحسن بي أن أقف؛ لكي أطلعك على أقوى عبارة إطراء سمعتها في حياتي المهنية، وصاحبتها كانت تعمل مساعدة إدارية في معهد الإعلام في جامعة بيرزيت، قالت لي: سمعتك هذا الصباح على الراديو. قلت لها: في أي برنامج؟ فقد كان لي في تلك الفترة عدة برامج على الهواء بعضها مسجل وبعضها حي، بعضها جديد وبعضها معاد؛ قالت لي: الذي تتكلم فيه بالعامية. قلت لها: هذا ليس أنا؛ أنا ليس لي برنامج بالعامية. قالت: ولو، وهل يخفي عليَّ صوتك! كنت تحكي اليوم قصة النبي إدريس، وتقول: كيف تعلق بالشجرة في الجنة.

نعم نعم، هذا أنا؛ ولكنني لم أكن أتحدث بالعامية. لا، الأبلغ من ذلك أنني كنت أقرأ النص من كتاب قصص الأنبياء المشهور بعرائس المجالس للثعالبي، وكنت أشكل أواخر الكلمات في قراءتي.

لم تقتنع زميلتي، ولبثتْ وقتًا تحاول إقناعي بأنني كنت أتحدث بالعامية.

هل هناك مديح أكثر من هذا؟ كدت أطير من الفرح؛ هذه مستمعة ظنتني أحدثها بالعامية وأنا أقرأ بالفصحى من كتاب عتيق، وعن نبي أعتق من نوح؛ فكيف كان ذلك؟ لم أكن أمثل؛ لكنني كنت مقبلاً على المستمع أحدثه بشغف، وكنتُ أشدُّه شدًّا مستخدمًا كل ما في جعبتي من عناصر التشويق.

خير ما يصنعه المذيع أن يجعل المستمع ينسى أن هناك ورقة يقرأ المذيع عنها، أن يجعل تلاوته حديثًا.

وثمة خط فاصل بين الإلقاء والتمثيل لا يجوز للمذيع في نشرة الأخبار أن يتخطاه بحال.

التمثيل شيء لا أعرف عنه الكثير؛ لكنني أميزه عندما أراه، الممثل الجيد يتقمص كما يقولون؛ بل أكثر من يتقمص، ففعل "يتقمص" مأخوذ من القميص، فكأن الممثل يلبس قميص الشخصية؛ لا، الممثل الجيد يلبس القميص والملابس الداخلية أيضًا؛ تراه يغضب فتنتفخ أوداجه حقًا، وترى في عينيه الغضب، وتراه يفرح فتشع الفرحة من عينيه، ويتهدج صوته في موقف الحزن، ويعلو أو ينخفض كما يجب أن يعلو وينخفض؛ "يعيش الدور"، هذا تعبير أحسن من "يتقمص"، والممثل مع ذلك يبالغ، ويجب أن يبالغ؛ فالفن لا يشبه الحياة بل يؤطرها في إطار ذهبي، والقطعة من الفيلم أو المسرحية ليست قطعة من الحياة؛ بل صورة منمقة عنها.

وكلمات المذيع أقرب إلى الحياة؛ لكن فيها مع ذلك من عدة الممثل شيء من الدراما، وشيء من التهيؤ، ولها إطار.

يبدأ المذيع تدريبه في دورة اسمها "دورة الإلقاء"، وأكون أنا مدربه، وهذا حدث مرات كثيرة بالمناسبة، يراني أقول له في أول

لقاء: لن تتعلم مني شيئًا. ما الذي جعلك تسجل اسمك في هذه الدورة؟

ثم أقول له: كيف عربيتك الفصحى؟ فيقول لي: نص نص. عندئذٍ أكاد أحثه على الانسحاب من الدورة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الرسوم التي دفعها.

حسنًا، ماذا عندك من الثقافة؟ هل قرأت الروايات والكتب؟ هل دخلت السجن؟ هل سافرت؟ إذا أجاب بالنفي فهو معي في عيشة ضنكى، وأنا معه في عذاب من يطحن الماء أو يعلك الهواء؛ هل تريدني يا هذا أن أصنع منك آدميًّا؟ أنت لا تملك عمق الشخصية، وليس بيدك من أدوات المذيع الأداة التي هي فاتحة الكتاب أي اللغة.

ثم قد يدهشني هذا المتدرب ذو الثقافة المحدودة، الفاقد كل أدوات المذيع، فيستخرج من عمق روحه حزنًا وفرحًا وارتعاشات أمل ورغبة قوية، ويصبح مذيعًا؛ الشخصية ليست مما يسهل تشخيصه.

يقرأ مذيعي المبتدئ النص، فأراه بأذني يناجي نفسه؛ فأصرخ به: اصعد الخشبة! أعني بذلك ضع شيئًا من الدراما في صوتك.

هناك ناس في جوفهم بركان يتفجر ولا يظهر منه شيء على السطح، هؤلاء هم "المنكفئون"، وهناك ناس في جوفهم فرن صغير فيه جمرات قليلة؛ ولكنها تبث حرارتها إلى الخارج، وهؤلاء "المتدفقون".

المنكفئ خجول في الغالب، وهو يصنع العجب عندما يتحكم بالبركان الذي بداخله؛ وعندما يشتغل المنكفئ مذيعًا قد يفتح الله عليه ويتقن صنعته، ويتأهب لها بما تيسر له من أدوات، وأهم من

ذلك أنه يعرف متى يفتح فوهة بركانه، وبالقدر المناسب لكي تتدفق من خلالها شخصيته بكل ما فيها من حرارة.

والمتدفق جريء في الغالب؛ وعليه أن يبذل جهدًا كي يكبح جماح نفسه عن الثرثرة، وعن الصراخ، وهو يبدو في أول الأمر كأنه مولود مذيعًا؛ نعم، قد يكون بالعًا راديو كما تصفه جدته؛ ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن يصيب نجاحًا باهرًا في مهنة الراديو.

قد أدركتم أنني بدأت أمدح نفسي؛ لابُدَّ بعد أن أسأتُ إليها من بعض المدح؛ أنا لست رجل مجالس، وإذا استزارني أحدهم فشرطي أن آتيه وهو وحده، فنتجاذب أطراف الحديث، فأما إن كان يريدني أن أزين مجلسه العامر بحديثي فما أقرب ما سيخيب ظنه، وقد طالما قلت لمن أرادوني على مثل ذلك: عشرتي هي واحد لواحد، فإذا اكتظ المجلس التمستُ الباب.

لاحظ أحد ضيوف الإذاعة المهمين ذلك، فعندما استضفناه مع بقية الزملاء قبيل البرنامج رآني صامتًا حينًا، متلجلجًا بأنصاف العبارات حينًا؛ ثم عندما دخلنا الاستديو اختلف الأمر؛ فقد صعدت الخشبة، وأديت أداء إذاعيًّا ليس فيه لجلجة، وقال لي بعد الفراغ من البرنامج: كنتَ شخصًا آخر. صدَق.

لا تفيد دورات الإلقاء المتدربين إلا قليلاً؛ دوراتي ودورات كل المدربين، المدرب لا يصنع بداخلك بركانًا، معضلته أنه لا يستطيع حتى أن ينقل إليك القدرة على استعمال تلك الأدوات التي تبدو بسيطة؛ ولنأخذ واحدة منها: "دس الصمت بين أعطاف الكلام".

لك أن تتخيل أبا محمود أو أبا مسعود، أو أن تتابعني وأنا أشرح لك طريقة أبي ذياب عندما كان يحدثني؛ اسمع أبا ذياب:

"جاءوا بسعيد، وأمسكه المختار من ذراعه (أمسكني أبو ذياب من عضدي وهو يقول ذلك، وصمتَ هنيهة)، قال له: (صمْت) هذا المولِّد الذي مددت سلكًا لتسرق منه الكهرباء لبيتك.. (صمت) هذا المولِّد دفعتْ كلُّ القرية ثمنه. من أفوااااه أطفالنا (صمت) أخذنا اللقمة لكي ننير القرية، وتجيء أنت وتسرق الكهرباء. عليَّ الطلاق، عليه الطلاق أي المختار وليس أنا (يقولها أبو ذياب بصوت مختلف ويضعها في نطقه بين قوسين، ويُتبعها بابتسامة، ثم يسحب الابتسامة بسرعة ويعود إلى حديثه متحمسًا)، عليه الطلاق (صمت.. وأنا طبعًا أترقب طبيعة العقوبة) إذا لم تدفع العشرين دينارًا.. (صمت) عشرون كما فرضها عليك المجلس القروي لاااا تنقص قرشًا.. فإننا (صمت.. ماذا سيفعلون يا ترى.. صمت أبي ذياب يجعلني مترقبًا ومشدودًا) سنسلِّمك للشرطة، وعليك عشرة شهود،.. لا والأهم.. (صمت) بعض الشهود من أقاربك".

انتهى المثال، لو أنني أردت أن أقرأ هذه القطعة في الإذاعة تمثيلاً فقد أحاول تقليد أبي ذياب؛ ولكنني لست بالممثل، فقط سأستأنس بتلك اللحظات القليلة التي كان يصمت فيها، سأدسَّ في تضاعيف كلامي شحنات غير مرئية من الصمت، سكتات قلائل تشحن النص بالدراما، ولن أنسى إطالة أحرف العلة في بعض المواضع.. ليس كما كان يطيلها محدثي الشيخ؛ ولكن لابُدَّ من بعض الإطالة.

فهل يصح أن يكون الكلام في الإذاعة شبيهًا بكلام الناس؟ الجواب: نعم. وحتى في الكتابة.

هل انتبهت بعد كل الصفحات التي انصرمت إلى أنني لا أكتب لك، بل أحدثك؟ إن لم تكن انتبهت فاسمح لي بكلمة: إحساسك

يخونك يا صاحبـــي، فأنا أكتب مثلما أتكلم، داء إذاعي لم يفـــارقني منذ ثلاثين سنة.

هذا شيء يمكن أن يخرجنا من حكاية الإلقاء إلى الكتابة؛ ولكن لدي قصة أريد أن ألقيها عليك: قصة أبـــي دهبل.

رأى أبو دهبل عاتكة فبهره جمالها، فاستترت منـــه بســـرعة، وشتمته؛ لكنها هي -أيضًا- رأت وجهًا وسيمًا؛ وبعث إليها بقصيدة غزل.

ومن هي عاتكة؟ هي ابنه الخليفة معاويـــة؛ فالويـــل لأبـــــي دهبل.

وبعد القصيدة قصيدة ثانية وثالثة، وانتشر خبر تلك القصـــائد، وعرف معاوية بالأمر، واغتم غمًّا شديدًا. وخاف أن يفتـــك ولـــده يزيد بالشاعر، فتكون فضيحة.

نعم، قد عاد الشاعر إلى مكة، وترك عاتكة في دمشق في كنف أبيها الخليفة. ولكن قصائده كانت تتوالى.

ذات يوم رأى معاوية ابنته، وعلى وجهها مَسحة حزن عميق، وعلم أنها لا تأكل كما كانت تأكل، ولا ينشرح لها بال. عرف أنها أحبته. جاء بولده يزيد وحذره من ارتكاب أي حماقة. قال له: إنمـــا ذلك شيء يقوله الشعراء.

وحج معاوية في سنته تلك، وما حج إلا ليلقى أبا دهبل. قـــال له: أذو زوج أنت؟ قال أبو دهبل: لا. فقال له معاوية: فأي بنـــات عمك أحب إليك؟ فسمى له أبو دهبل فتاة من بنات عمومته كانت ذات حسن وخلق. فدفع إليه معاوية مهرها، وأفضـــل عليـــه بمـــال وكسوة. وقال له: لا تعد إلى ما كنت فيه؛ فأما من نفسي فلا بـــأس

عليك، لكنني أخشى عليك غضب يزيد. ففهم أبو دهبل، وأقسم لا يعود، و لم يعد إلى ما كان منه.

انتهت القصة. ولستَ بحاجة إلى كثير جهد لتخمن أين كنت سأضع سكتاتي الصغيرات وأنا أقرأ هذه القصة على الميكروفون؛ ولعلك أدركت أنني سأُدخل عنصر الدراما على صوتي وأنا أسوق الحوار بين معاوية وأبي دهبل.

اقرأْ هذه القصة في كتاب الأغاني للأصفهاني تَرَ الفارق بين الكتابة للأذن والكتابة للعين.

الكتابة

لا أقول: إنني في كل هذا الكتيب الذي بين يديك أكتب للأُذن. ولو كنت أفعل ذلك لخلصته من كثير من الكلمات والأساليب العتيقة؛ غير أنني من أولئك النفر الذين يحبون الخلط في كلامهم بين القديم والجديد، بين لغة الصحافة وبين اللغة الأدبية القديمة، وبعض السبب إيمان بأن لغتنا الفصحى تملك ثروة تعبيرية لا يجوز إهمالها كل الإهمال، ومعظم السبب إنما هو التباهي بهذه الأساليب والمفردات، ومن قال لك: إنني فوق التباهي! ولعلي أغفر لنفسي بعض هذا الزهو لعرفاني أن قراء كثيرين يستطرفون اللغة القديمة، ويتلذذون بها؛ تمامًا مثلما يتلذذ أبناء إخوتي عندما أقص عليهم قصة باللهجة النابلسية العتيقة التي سكنتني في طفولتي، وأصبحت الآن شبه منقرضة، فيضجون بالضحك بين الجملة والجملة، ليس من روعة القصة بل من طرافة اللهجة.

ترجمت الأخبار وتقارير المراسلين في هيئة الإذاعة البريطانية، وبدأت أَبري لنفسي قلمًا إذاعيًّا، عندما كنت آخذ ورديه المذيع كنت أحس بالفارق الكبير بين ترجمة الزميل ن وترجمة الزميلة م؛ هي نشرة أخبار؛ أي إنها لا تقتضي الكثير من الجهد، عباراتها معروفة "قال، واستنكر، وصرح، إلخ". ولكن الزميل نون كان يلقي الخبر من

يده قطعة مفهومة منسقة أحسن نسق، عباراتها مترابطة، وقراءتها سهلة؛ وأما الزميلة ميم فخبرها متعتع، ولابُدَّ لك من تحضيره طويلاً قبل الذهاب إلى الاستديو؛ تأتيك في وسطه عبارة تقف إزاءها طويلاً، وتخمن، وتتخيل في ذهنك كيف كان الأصل الإنجليزي ثم تقول: آه، هي تقصد أن تقول كذا. وتكتشف أنها فهمت النص بالمقلوب، أو أنها لم تفهمه فوضعت تحت كل كلمة إنجليزية مرادفها العربي، وكفى الله المؤمنين.

في ورقياتي التي قرأت فيها نشرات الزملاء الآخرين اخترعت بيني وبين نفسي مصطلحي "البيان" و"الإشراق"؛ فالمترجم الجيد يبين عن المعنى، ويجلوه جلاء، فإذا كان مترجمًا ممتازًا فالمعنى يشرق في وعاء من اللغة العالية. ثمة فارق بين من يقول: "في الوقت الذي لم تعد تستعد فيه المدينة لاستضافة المؤتمر، قال رئيس البلدية: إنه لم تعد هناك ثمة من ضرورة لإنفاق أموال أخرى على عمليات تعبيد الطرقات والشوارع"، وبين من يقول: "إذ تقرر عدم عقد المؤتمر في المدينة قال رئيس البلدية: إنه لا حاجة لمزيد من الإنفاق على تعبيد الشوارع". هناك توفير نحو ثلث الكلمات في النص الثاني، وهو – فوق ذلك– خال من الركاكة التي تجدها في النص الأول.

الكتابة الإذاعية تنجح في الجرائد؛ لا بل أريد أن أزعم أنها أنجح في الجرائد من لغة الجرائد؛ فقد تجاوزت أخبار الجرائد وتحقيقاتها في طولها صبر القارئ ومضمار استمتاعه، فصار يقفز بعينيه قفزًا من عنوان إلى عنوان، وكثيرًا ما يطيلون لملء الفراغ؛ وهاك تجربة مما مر بي:

اجتمعت بموظفي العلاقات العامة في جامعة بيرزيت على مدى يومين متتالين بطلب من الإدارة العليا في الجامعة بغرض تعزيز

مهارات الكتابة، ومما قلته -وليتني ما قلته، وسترى النتيجة بعد أسطر- إن هذه الأخبار المطولة المليئة بكل التفاصيل التي يرسلونها إلى الصحف الرئيسة الثلاث في البلد يجب أن تكون قصيرة، وأن يكون الحدث المركزي فيها بارزًا؛ قضينا ذينك اليومين فيما يسمونه الورشة، وشربنا الشاي والقهوة.

ثم إنني بعد نحو شهرين، وجدت نفسي رئيسًا لتحرير إحدى هذه الصحف.

كانت تأتيني تلك الأخبار الروتينية من الجامعات فأختصر بعضها إلى أقل من الربع أحيانًا، ويفوتني الاهتمام ببعضها لوجود مسائل أهم فأترك الخبر على حاله طويلاً مملاً، وأنبذه إلى المصحح، الذي يحوله بعد ذلك إلى غرفة التنضيد، وفي آخر الليل كنت أمكث كي أرى الصفحة الأولى قبل إغلاقها، وكثيرًا ما كنت أجلس إلى المنضد وهو يرتب بعض الصفحات الداخلية، كان يأتيه الخبر القصير المحكم البنيان عن الجامعة فيلقيه في ذيل الصفحة، ويجعل عنوانه صغيرًا مثله، ويأتيه الخبر الطويل الممل فيفرشه على ثلاثة أعمدة في رأس الصفحة أو في وسطها، ويحليه بعنوان عريض، ويفرح المنضد بالخبر الطويل؛ لأنه يساعده في ملء الصفحة. فيا لضياع الجهد! فلو عدت إلى زملائي في مكتب العلاقات العامة لقلت لهم: أطيلوا الخبر ما استطعتم كي يبرزوه في الصحف.

وأعود بك بضع سنوات.

كنت متوجهًا بقطار الأنفاق إلى وايت سيتي بلندن؛ كي أشارك في مقابلات يتم إجراؤها في تلفزيون البي بي سي لمحررين يراد تعيينهم للقناة الجديدة الناطقة بالعربية؛ كان هذا في نحو سنة أربع

وتسعين، وجدت على مقعد القطار نسخة من جريدة الصن، الجريدة التي توزع خمسة ملايين نسخة، تركها الراكب النازل بعد أن تصفحها في سويعته القطارية، تصفحت الجريدة، ووقعت عيني على افتتاحيتها، مقال من نحو مائة وخمسين كلمة لا أكثر، يمثل رأي الصحيفة في الشأن السياسي، وهو منضد بالحرف الكبير، ومكتوب كتابة عجيبة، مكتوب كي يقرأه المتعلم ونصف الأمي فيفهمان كل حرف فيه، مكتوب بعناية شديدة، وباحترافية عالية، وببساطة مدهشة.

اصطحبت الجريدة معي إلى المقابلات.

أن تحمل بيدك رشاش كلاشنيكوف داخل مبنى البي بي سي أقل إثارة للذعر من أن تَضْطَبِنَ[1] صحيفة الصن الشعبية؛ فالقوم ينظرون إليها على أنها تلك الصحيفة الصفراء الشعبية التافهة المليئة بالشائعات، وهم على حق في كل ذلك، غير أن فيها ذلك العنصر البراق: الكتابة السهلة. وكي أغيظ الزميل تشارلز الذي كان يتصدر مقابلات التوظيف كنت أشير إلى أسلوب الصن في الكتابة أثناء الحديث إلى مرشحي الوظيفة، فكل مقابلة من تلك المقابلات كانت تدوم أربعين دقيقة نناقش فيها الكتابة للتلفزيون واستخدام الصورة، وما إلى ذلك من الأمور المهنية، ولعمري! كان تشارلز ينظر بطرف عينة إلى تلك الصحيفة التي وضعتها إلى جانبي نظرة فيها خليط من الاشمئزاز والرعب.

تعلمتُ من أسلوب صحيفة الصن أن الكتابة يمكن أن تكون سهلة ومباشرة، وعرفت أن ذلك يمكن أن يُوظَّف توظيفًا حسنًا؛ بحيث لا يفضي بالكاتب إلى الإسفاف.

---

(1) تَضْطَبِنَ: تتأبط.

قد قتل علماء البلاغة مسألة الإطناب والإيجاز بحثًا؛ ولكن الصحافة في كل العالم كانت تخضع لشروط الطباعة وتنضيد الصفحات وللمعايير العتيقة، وعندما بدأ ألفرد هارمسوورث صحيفة الديلي ميل 1896 فوجئ الناس بأن هناك طريقة أخرى لكتابة الجرائد؛ ومنذ ذلك الزمن وإلى يومنا هذا والصراع قائم بين جرائد التابلويد والجرائد الرصينة.

للراديو أنت مرغم على الكتابة بأسلوب الديلي ميل والصن، ولك الخيار بعد ذلك أن تكون عميقًا ومفيدًا ومسليًا، أو أن تكون تافهًا وسطحيًّا ومسليًا؛ ولئن اغتفر لك قارئ الجريدة بعض الإطناب؛ فإنما يفعلها لأنه قادر أن ينزلق بعينيه على أسطرك قارئًا كلمة من كل سطر حتى يصل إلى الزبدة؛ فأما المستمع إليك في الراديو فلابُدَّ له من الاستماع إلى كل كلمة؛ لذا وجب على نص الإذاعة أن يكون محكمًا ومسليًا ثم بعد ذلك ليكن مفيدًا أو غير مفيد.

وأما الكتابة للتلفزة فأمر مختلف؛ وقد عرفتها متأخرًا، كتبت نصوصَ نحو ثلاثمائة برنامج قصير، وراجعت نصوصَ بضع مئات من الوثائقيات، وبلسان هذه الخبرة المحصورة في هذا المجال أتكلم.

عندما بدأت الإذاعة قبل مائة سنة، بحثوا عن مذيعين فتقدم للوظيفة ممثلو المسرح، (السينما كانت صامتة آنذاك)؛ فكانت نشرات الأخبار الباكرة صراخًا؛ لأن الممثل المسرحي يصرخ كي يُسمع الجمهور، هذا طبيعة عمله، فإذا أراد الحبيب أن يناجي حبيبته على المسرح فهو يبتعد عنها بضع خطوات ويصرخ لها بغرامه لمنفعة السيدات والسادة النَّظَّارة؛ ولبث الراديو يعاني من أثر المسرحيين

سنينًا، حتى اقتنعوا بأن الحديدة التي أمام أذقانهم تملك القدرة السحرية على إيصال همساتهم إلى المستمعين.

وجاء المحررون إلى الإذاعة من الصحف؛ وعندما جاء التلفزيون؛ جاءه المحررون من الإذاعة، ومن الصحف.

الكتابة للتلفزة في العالم العربي تمشي متثاقلة تحت إرث وسائل الإعلام القديمة؛ والإنسان لا يتأقلم بسهولة.

لم يقفز كل تلفزي عربي من الجريدة إلى التلفزيون بعدُ، تكتظ غرف الأخبار، وصالات الإنتاج البرامجي في محطات التلفزة العربية بأشخاص قاعدين يكتبون المقالات، بعضها مما لا يصلح إلا أن يكون كذلك؛ لأنه مديح للحاكم، وبعضها كان يمكن أن يكون أحسن بكثير لو كلف التلفزي نفسه أن ينظر إلى الصور المتوفرة قبل أن يمسك القلم.

نصوص الإذاعة مختلفة عن نصوص الجريدة؛ ولكن نصوص الإذاعة لو طبعت على صفحات الجريدة لكانت مادة جيدة، ونصوص التلفزة مختلفة عن نصوص الإذاعة، وهي لا تصلح للإذاعة ولا للجريدة، والسبب الصورة.

خير ما يصنعه التلفزي أن يجمع ما تيسر له من الصور؛ سواء بأن يلتقطها في الميدان مع فريق التصوير، أم بأن يستقبلها من الوكالات، أم بأن يسرقها من الإنترنت؛ وهنا كلمة تحذير: وجدت العاملين في التلفزيون يملكون ذاكرة بصرية حادة، ترى أحدهم يشاهد فيلمًا وثائقيًّا فيقف عند صورة مسروقة لا تتجاوز مدتها الثانيتين أو الثلاث، ويقول: هذه وردت قبل عشر سنوات في المكان الفلاني.

بعد جمع الصور، ووصفها على الورق وصفًا دقيقًا؛ يفكر التلفزي في قصته التي يريد أن يرويها للمشاهد، وسواء في هذا من ينتج تقريرًا لنشرة أخبار، ومن ينتج فيلمًا وثائقيًّا طويلاً مدته ساعة، يرتب التلفزي الصور بحسب سياق معين على الورق، ثم يرصفها أمامه على الشاشة، ثم يتركها تروي القصة وحدها؛ فإن لم تستطع الصورة أن تقدم المعلومات الكافية فهو يدعمها بذكر بعض النتف المعلوماتية القصيرة المفككة، ثم يصوغ ذلك في سياق لفظي مريح سهل وقصير. وبراعة النص التلفزي موجودة في الكلمات التي لم تكتب، لا في الكلمات التي كتبت. براعة التلفزي هي في أن يترك الصورة تتكلم، وقد يضطر التلفزي إلى نص طويل لا تقوم به الصور المتوفرة، وهناك لعلاج هذه العلة الرسوم التوضيحية المسماة بالغرافيك.

لن أطيل في شأن الصورة، ولكنني أذكر برنامجين بل ثلاثة لي لخصوصية معينة: أنتجت "ألبوم مدينة"، ولقي صدى طيبًا، و"ربيع الشعوب"، و"كلمة حق". ولم ينتبه كثيرون من المشاهدين، وكثيرون من الزملاء -أيضًا- إلى حقيقة بسيطة.. هي أن جميع الصور المستخدمة صور ثابتة، جربت وضع صورة متحركة في حلقة عن فارس الخوري في برنامج كلمة حق، وابتعت الشريط من جهة خارجية، ثم فضلت عدم استخدام الشريط واللجوء إلى صور ثابتة، وعلمت من زملاء أعلم مني أن هناك وثائقيات طويلة تستند فقط إلى الصور الثابتة.

الكتابة الاحترافية صنعة؛ وقد وضعت نفسي -بل وضعني بعضهم- في موقف حرج ذات أسبوع هو تحرير نصوص زملاء

آخرين؛ ولحرصي على أن تصل الفكرة، ولأنني مولود معلمًا كنت أُجلس الزميل بجانبي وأحرر نصه، وكان بعضهم كلما غيرت كلمة أو فاصلة قال لي: هذا أسلوبي. ولم أكن أقول له ما يجب أن يقال؛ لكنني الآن أقول ما يجب أن يقال: أيها الصحفي، أنت لست امرأ القيس، وهذا الهراء الذي على شاشة الحاسوب أمامنا ليس: قفا نبك. الكتابة الإعلامية صنعة لا إلهام.

ولا أمضى بعيدًا عن هذا الموضوع إلا بعد أن أتراجع بعض التراجع فأقول: لبعض الإعلاميين أسلوب أدبي يتلذذ المشاهدون والمستمعون به. فأما إن قال لك أحدهم -وهذه سمعتها بضع مرات- إن العرب أمة سماع، وتتلذذ بالكلام الجميل، فلا يحملك إيجاز هذه العبارة الجميلة على الاعتقاد بصحتها. هذه ليست بديهية؛ كل أمة لها من لغتها أدب تحب سماعه، ولكل أمة شكسبيرها. وكم تلفزيٍّ مبتدئ رأيته يرسل موضوعات الإنشاء المدرسية كي تطن في أذني بعوضًا مزعجًا! وكم مذيعٍ راح يستخدم أصعب الكلمات التي مرت به ككلمة يضْطَبن، ومعناها: يتأبط.

العودة إلى قصة حياتي

قد أكثرتُ من القفز بين الماضي والحاضر، والمستقبل أيضًا، ولعلك تكره هذا في الروايات مثلما أكرهه أنا، لست على يقين أنك بقيت معي إلى هذا الحد؛ ولكن، بما أنك تقرأ هذا فقد بقيت، ومن حقك عليَّ أن أمضي بك دون هذا القفز البهلواني.

أنا الآن مترجم ومذيع في إذاعة لندن، وانتقلت من الأخبار إلى البرامج الإخبارية، وقد أجريت بضع مقابلات مهمة، مع شمعون بيرس وحسني مبارك وياسر عرفات، وعشرات المقابلات غير المهمة أيضًا، أجريت ذات يوم مقابلة حساسة جدًّا، تلقينا بسببها شكاوى من عدة دول، وأخذ المسؤولون الكبار في الإذاعة المقابلة وترجموها، وردوا على الشكاوى بشأنها في خطابات رسمية لابُدَّ أنها كانت طويلة ومصوغة صياغة دقيقة؛ لكنني لم أعرف عن ذلك شيئًا، كانت المقابلة نظيفة تحريريًّا.

كنت بين الحين والحين أتلقى التدريب في مركز التدريب التابع للإذاعات الخارجية؛ حيث كان العربي والهندي والكولومبي والإنجليزي والألماني يجلسون معًا كي يتدربوا على أيدي زملاء أكثر خبرة، ومن أحد هؤلاء المدربين عرفت أن مقابلتي تلك الحساسة صنعت دويًّا في الطوابق العليا.

طلبني مركز التدريب للعمل فيه، فاعتذرت بأنني لست مؤهلاً؛ ولم يأخذوا بكلامي وفحصوا الأمر، فقالوا لي: أنت منتج، فلا تنفعنا أصلاً؛ إذ يجب أن يكون المدرب منتجًا أول. وبعد أشهر عقد مجلس ترقية وأصبحت منتجًا أول، وكان أول من عرف الخبر مركز التدريب؛ فرغم أن نحو أربعة آلاف موظف يعملون في هذه المباني المتشابكة التي اسمها "بوش هاوس"، التي تضم كل الإذاعات الخارجية فمركز التدريب يعرف كل صغيرة وكبيرة. واستُدعيت للتدريب.

قضيت ستة أشهر كنت فيها مدربًا، ولكنني أخذت من التدريب أكثر مما أعطيت؛ فقد عقدت عشرات الدورات، وتقلب عليَّ مئات الزملاء واستضفت العشرات من الزملاء القدامى ذوي الخبرة الواسعة، وبعد ستة أشهر كان علي أن أعود إلى القسم العربي؛ ولأن منصب مدير البرامج كان قد خلا، واقترب موعد عقد مجلس ترقية لاختيار مدير للبرامج فقد دبجت لي مسؤوليتي في مركز التدريب شهادة ممتازة، وتبرعت بإرسالها إلى كل مَن مِن شأنه أن يحضر مجلس الترقية.

وفزت بالمنصب.

كتبت يومها رسالة إلى صديق، وكنا لا نزال في زمن الورق، قلت له: اليوم سقطت في الوحل.

بقيت مديرًا للبرامج خمس سنين، رغم أنني تجاوزت الخامسة والثلاثين فإنني لم أكن تخلصت من عقدة حب السيطرة؛ لذا كوفئت بعدد من المؤامرات. كنت أستحقها؛ ولكنني امتلكت ميزة أخرى أنقذتني؛ هي أنني لم أكن أضع زميلاً في موضع يشعر فيه بالمهانة، ولم أكن أؤنب أحدًا؛ ففي التأنيب وضع من قيمة الإنسان. وخير منه

ألف مرة مناقشة المسألة وتمرير الملاحظات تمريرًا هينًا؛ فالمهم ليس الخطأ الذي وقع بل تجنب تكراره؛ وككل مدير في الدنيا، وككل مرؤوس أيضًا، كنت أحس بوخزة ألم من التقييم السنوي. وخزة! هل جربت وخزة تدوم أسبوعًا؟

مضيت أنتج بعض البرامج بنفسي، كنت أتسلل إلى الإذاعة ليلاً وأنتج برامجي في الاستديو الذاتي التشغيل، ثم أحرر الشريط باستخدام السكين والشريط اللاصق.

أنتجت تمثيليات إذاعية مستندة إلى روائع الأدب الإنجليزي، وكان برنامجًا ثقافيًّا من إحدى وعشرين نصف ساعة؛ وأنتجت برنامجًا باسم "دائرة المعارف". ولكنني كنت منشغل الذهن بإدارة فريق يتجاوز الثلاثين شخصًا.

كنت بين الحين والحين أفزع إلى كتب الإدارة أقرؤها بنهم. لا، ليس تلك الكتب الناعمة التي تقول لك كيف تصبح مديرًا ناجحًا؛ هناك نوع آخر من الكتب يقص عليك قصص الغابة التي اسمها الإدارة، ويصف لك وحوشها؛ كنت أتلذذ أيما تلذذ وأنا أقرأ عن مواقف تشابه ما أمر به حدَّ المماثلة.

على المدير أن يُرضي غرور رئيسه بإظهار الاستكانة، وأن يلجم مرؤوسيه بإظهار القوة.

كنت أرضي رئيسي بإظهار الاستكانة، وأرضي مرؤوسيَّ بإظهار الاستكانة. ماذا تفعل بمذيعة تفتح بابك برجلها وتندفع شاكية، وأحيانًا باكية، وتصب على رأسك الشكوى ممزوجة بالتهديد؟ الاستكانة. وهل تستطيع أن لا تضحك لنكتة مديرك؟ بالطبع لا.

المدير المتوسط قطعة مطاط بين حديدتي المحرك. عليه أن يتلقى الصدمات من فوق ومن تحت. والمرء يعشق أن يكون مديرًا. وكتب علي أن أتقلب في المناصب الإدارية. تعرف ولا شك تعبير "يتقلب على الجمر"!

بحلول عصر الإنترنت قرر القسم العربي أن يفتح موقعًا، ولشح الموارد جاء ذلك على حساب دائرة البرامج. أغلقت الدائرة، فشددت رحالي إلى الوطن.

عملت مشرفًا على القسم الإذاعي في معهد الإعلام بجامعة بيرزيت. وفي الوقت نفسه أصبحت مراسلاً لإذاعة لندن في بلدي فلسطين. وسرعان ما توليت الإشراف على المعهد. كنت أنتج البرامج الإذاعية وأبعث بها إلى شتى الإذاعات في البلد، وكانت آنذاك أكثر من ثلاثين إذاعة، وهي اليوم أكثر من ثمانين. وأنتجت برامج خاصة لإذاعة فلسطين، إذاعة السلطة الفلسطينية، ولإذاعة أجيال كبرى الإذاعات الأهلية. وإلى ذلك كنت محاضرًا بعبء كامل في تخصص الإعلام بالجامعة. وترجمت كتابًا عن الإنجليزية وآخر عن الألمانية نشرهما معهد الإعلام. ثم كتبت كراسة سياسية نشرتها على نفقتي بعنوان "المسألة الفلسطينية"، ولحسن حظي لم أبع منها سوى ثماني نسخ. فبهذا تجنبت مشكلة شبه مؤكدة مع السلطة الفلسطينية التي كان مضى على حكمها للضفة الغربية وقطاع غزة عشر سنين، وكنت لها من المنتقدين. وكتبت كتابين في الإعلام، وكتابين في قواعد اللغة العربية، الأول من ثلاثمائة وعشرين صفحة ونشرته في الأردن، والثاني من تسعين صفحة ونشره معهد الإعلام. وستراني بعد قليل أؤلف كتابًا ثالثًا في النحو. فانتظر خبره فهو كتيب طريف في حجم جواز السفر.

عدت إلى ما كنت فيه قبل عشرين سنة، أقفز من مشـــروع إلى مشروع. ولم أكن أتقاضى من معهد الإعلام سوى مرتبـــي، فأمـــا التدريس والكتب والبرامج الإذاعية التي ينتجها المعهد فكنت أعتبرها جزءاً من عملي، وكنت فوق ذلك أقدم الدورات الإذاعية للإذاعيين المحترفين. ومما قدمته برنامج في إذاعة أجيال اسمه "غلط غلط"، وقـــد طبعت حلقاته المائتين والثماني والستين في كتاب، على نفقتي ونفقـــة إذاعة أجيال مناصفة. وأعتبره آصَل ما نشـــرتُ علـــى الإطـــلاق. وأشهد، وشهادتي فيه مجروحة، أنه مثال للحديث الإذاعي كما يجب أن يكون الحديث الإذاعي. وصنعت برنامجًا إذاعيًّا من أربع وخمسين حلقة عن الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية، وبثتـــه عـــدة إذاعـــات، وطَبعت منه جامعة بيرزيت ألف نسخة على قرص مدمج يحتوي أربع عشرة ساعة.

لم تكن هذه الحمَّى من النشاط لتستغرق حياتي كلها، ولعلـــه يحسن بـــي أن أخبرك أن ما أغفلته من برامج يوازي مـــا ذكرتـــه. فكيف يكون ذلك في بحر ست سنوات وبعض السنة؟

كنت أستمد المادة من قراءات متوحشة لم أقطعهـــا يومًـــا في حياتي. إن قراءة كتاب تضيف إلى حياتك حياة أخرى (الفكرة قالها العقاد). الآن أقرأ الكتاب وأنسى بعد حين كل ما فيه، بل لقد أنسى أنني قرأته أصلاً. لكن لا بأس فأنا أزيد المعلومات الـــتي في رأســـي ترتيبًا، ثم إن متعة المطالعة لا تساويها متعة في الدنيا. ففي هذا وحده مقنع ومغنم. الآن أكتب لك كلماتي هـــذه، صـــفحتين وثـــلاث صفحات، ثم أخلد إلى الجزء الثامن من كتاب الأغاني، وهذه ثالثـــة مرة أقرأ فيها هذا الكتاب الضخم الذي يقع في أربعة وعشرين جزءاً.

فهل تراني سأنفق جهدًا كبيرًا كي أكتب حلقة إذاعية عن جريـــر أو الفرزدق؟ وقل الشيء نفسه عن بيتهوفن وموتسارت.

غير أنني لاقيت ذات يوم صعوبة غريبة وأنا أقص قصة بيتهوفن. فقد قرأت أن الموسيقار المشهور كان يصنع قهوته في الصباح بنفسه، يعد حبات البن واحدة واحدة، ويجرشها، ويصنع قهوته. حسنًا. فكم حبة بُن كان يجرش. لبثت زمنًا وأنا أرجئ هذه الحلقة حتى عثـــرت بكتاب نشر بعيد وفاة بيتهوفن. هناك فقط وجدت أن لودفيغ فـــإن بيتهوفن كان يجرش ستين حبة بن لكوب قهوته الصباحية.

لا حاجة إلى الاستفاضة في أثر المطالعة في جعل الإعلامي أكثر من مجرد صندوق صوت.

كنت مستمتعًا بالعمل مشرفًا على معهـــد الإعـــلام بجامعـــة بيرزيت، أخوض في دنيا الإعلام منتجًا ومدربًا ومحاضـــرًا ومؤلفًـــا؛ ولكن فلسطين الصغيرة، الضفة الغربية وقطاع غزة التي هـــي ربـــع فلسطين التاريخية، كانت تحت الاحـــتلال رغـــم محاولـــة الســـلطة الفلسطينية إقناع نفسها بأنها تحكم البلد. جواز الســـفر الفلســـطيني نظيف ليس عليه حرف عبري واحد. ولكن في زاويته اليسرى رقـــم ملفك في المخابرات الإسرائيلية. ومرت سنوات كثيرة منعت فيهـــا السلطات الإسرائيلية دخول الكتب إلى فلسطين السلطة. وهي للآن تمنع دخول الكتب المطبوعة في لبنان. لكنني لم أغادر بلدي لأنه بلـــد صغير، ولم يكن من همي أن أنتشر، ولا أن أشتهر، غادرت لأن زامر الحي لا يُطرب.

ذات يوم استدعوني إلى مكتب الإدارة، وبلهجة غريبة كلموني، قالوا: لقد نـــزل في حسابك ثلاثمائة دولار إضـــافية، وعليـــك أن

تعيدها إلى الجامعة. ولماذا؟ أنا أصلاً لا أراجع حسابي البنكي، ولا تأتيني من المصرف ورقة حساب لا شهرية ولا سنوية. قالوا: أنت تعطي المحاضرات كجزء من عملك، ولا حق لك في مكافأة إضافية. لم أجادل، ولم أقل لهم: إنني لم أطلب قط مكافأة، وإنني لم أعلم بنزول المبلغ في حسابي. بل انطلقت وكتبت لهم صكًّا مسحوبًا على مصرف بريطاني بسبعة آلاف جنية إسترليني، لتوازي آنذاك عشرة آلاف دولار، وقلت لهم: هذا تبرع للجامعة. قبلوا التبرع، وسحبوا الثلاثمائة دولار، واعتبرت القضية منتهية؛ لكنه آلمني أن تشعر المؤسسة بأنك ستموت موتًا بدونها.

بعد أشهر من هذه الحادثة وضع رئيس الجامعة تصورًا لهيكلية جديدة للمعاهد المختلفة. وطلب مديرو المعاهد أن يجتمعوا به ليعرضوا وجهة نظرهم، فرفض، فتعاهدوا على الاستقالة؛ طبعًا كنت أعلم أنهم لن يستقيلوا، قد جلل الرأس مشيب وصلع واحتنكت في هذا الدنيا، ولم أصدق أن أحدًا سيستقيل، على أنني قدمت استقالة هادئة صامتة، واتصلتُ بقناة الجزيرة التي كانت مَنَحَتْني عرض عمل قبل سنة، وما تمكَّنتُ من تلبيته؛ فجدَّدَت الجزيرة عرضها، والواقع أن الجزيرة كانت منحتني أول عرض عمل قبل ست سنين، بُعيد مغادرتي لندن وكانت محطة غضَّة الإهاب؛ ولكنني كنت سعيدًا بعملي في الجامعة.

بعد استقالتي بأسابيع تسلمت عملي في قناة الجزيرة في قطر.

كان هذا في أول فبراير/شباط عام 2006.

كنت دارسًا ومدرسًا في جامعة بيرزيت، ولا أجد أفضل منها في الدنيا؛ فهذه الجامعة التي هي أول جامعة عربية على أرض فلسطين

حافظتْ على مناخ من النقاش والحرية ندر أن تجده حتى في جامعات أوروبا.

لكن، كما قال أبو تمام:

وطول مقـــام المـــرء في الحـــي مخلـــق
لديباجتيـــــه فـــــاغْتَرِبْ تتجـــــدَّدِ
فإني رأيـــتُ الشـــمس زيـــدت محبـــة
إلى الناس أن ليست علـــيهم بســـرمد

في قناة الجزيرة

مكثت شهرًا وبعض شهر في الجزيرة قبل أن أتسلم منصب مدير البرامج، وفي هذا الوقت عقدت دورتين للصحفيين في غرفة الأخبار، وحرَّرت بعض النصوص؛ لكنني شغلت نفسي بشيء آخر، كتبت كتابًا ثالثًا في النحو، وهذه المرة جعلته في تسع وعشرين صفحة بالحجم الكبير، ونشرته الجزيرة كتيبًا صغيرًا بحجم جواز السفر، وكنت به مسرورًا.

قصتي مع قواعد اللغة العربية طويلة؛ لكنني سأقصرها؛ بلغتُ الصف المدرسي العاشر وأنا لا أكاد أميز الفاعل من المفعول رغم اتساع قراءاتي، لقد أخفق النظام المدرسي إخفاقًا في تعليمي هذا الشيء الذي اسمه النحو، وقعدت للنحو يومًا أو بعض يوم وحدي، وتعلمته لأنني -أنا- أردت أن أتعلمه، وإنما ساعدني عليه أنني أسمع العربية الصحيحة من بعض الإذاعات، وأعرف أساليب اللغة الفصحى من مطالعتي الكتب، فلم يبقَ إلا أن أفك تلك الرموز.

لم تدخل رأسي قط تلك الخرافة التي تقول: إن النحو يُعينك على فهم المكتوب. هو حلية للكلام فحسب، وهو ملازم لعربيتنا الفصحى كما تأدت إلينا عبر القرون، وسيأتي يوم تتخفف فيه الفصحى من كثير من الضوابط النحوية، أو من أكثرها؛ لكن هذا

اليوم ليس قريبًا؛ لذا أحببت أن أساعد زملائي بمختصر مليء بالأمثلة، فجاء كتابي الثالث في النحو -على صغره- مشحونًا بنحو سبعمائة مثال، كلها من العبارات والجمل التي تجدها في الجريدة وتسمعها في الإذاعة.

وإخفاق أنظمتنا التعليمية في إدخال النحو إلى عقول ملايين الطلبة مؤشر إلى إخفاقها في كل العلوم الأخرى.

أتيت إلى الجزيرة هابطًا بالمظلة كما يقولون، فلستُ من المؤسسين، وكانت الجزيرة عندما التحقتُ بها قد أكدت دورها التاريخي في مسيرة الإعلام العربي، كانت حرب يوليو/تموز 2006 التي شنتها إسرائيل على جنوب لبنان موقفًا جديدًا أكدت فيه الجزيرة خطها التحريري، ومكثت في الجزيرة إلى ما بعد الربيع العربي الذي أكدت فيه الجزيرة مرة أخرى خطها التحريري.

وكان لي في الجزيرة بعض البرامج القصيرة التي كتبتها وقدمتها؛ من بينها: "قال الشاعر"، و"ألبوم مدينة" و"ربيع الشعوب"، ومؤخرًا "حق لا مكرمة". ولكن عملي الحقيقي كان الإدارة، وظيفة تحبني ولا أحبها، قدمت استقالتي ثلاث مرات، ليس لوجود أي خلاف؛ بل لمجرد السعي للهروب إلى عمل أتفرغ فيه للإنتاج، والإنتاج الإعلامي لا يصنع مجدًا، هو عمل فحسب، وأنا أفضِّله على الإدارة.

في الاستقالة الثالثة كنت مصممًا، وجعلتُ التوقيت بحيث يصادف ذكرى مرور ست سنوات على التحاقي بالجزيرة، ورجعت إلى وطني، حاملاً معي نسخًا من كتابين آخرين نشرتهما وأنا أعمل في الجزيرة؛ كتاب اسمه: "شاعر الألف سنة" عن أحمد شوقي، وكتاب اسمه: "عصارة المتنبي". ويبدو أن الناشر رأى ألا يوزع الكتابين، فلم أجد

أحدًا رأى نسخة من أيهما في أي مكتبة، ولا حتى في مكتبة الناشر نفسه بالقاهرة، على أنني لم أتخلَّ بعدُ عن هذا المشروع/الحلم.

مشروعي هو أن أعرض الشعر العربي القديم للقارئ المعاصر في ثوب لائق، وقد أنجزتُ خُمس المشروع، ذلك أنني حددت ستين شاعرًا من الجاهلية إلى خمسينات القرن العشرين رأيت أنهم سادة الشعر وعبيده، امتلكوا ناصية القصيد امتلاكًا، وانقادوا لربة الشعر انقيادًا، وقلتُ: أؤلف عن كل شاعر منهم كتابًا. ومن بين هؤلاء الستين أنجزت كتبًا عن اثني عشر شاعرًا: كتابان نشرهما وحبسهما الناشر في مخازنه، وعشرة كتب حبستها أنا في حاسوبي إلى أن يتيسر لي النشر إن بسط الله في العمر.

قد رأيت الشعر العمودي منقعرًا منذ الخمسينات، ومرَّ على ذلك جيل فجيل خرج فيهما الشعراء إلى شعر التفعيلة، ثم هجروا الوزن بتَّة وكتبوا أسطرًا من النثر الفني جعلوها قصارًا فملؤوا بها الصفحات، وسموها: قصائد النثر. هذا واقع يصفه بعضهم بالهبوط الأليم، ويصفه بعضهم بالخير العميم؛ لكنه أمر واقع، لم يعد للشعر العمودي سوق، فهل مات شعرنا العمودي؟ الجواب: نعم مات. ألا تراهم يحشرون الكتب المدرسية بقصائد القدماء العمودية، ثم يخرج من بين الطلبة شاعر فينبغ؛ فإذا قصائده تسير على النمط الجديد؟ وهل للشعر العمودي نشور؟ لا أدري، ولست ممن يريد إنشاره على كل حال، فليكتب الشعراء الشعر كما تمليه عليهم ربة الشعر؛ لكن ما سلف من شعرنا العمودي هو تراث أمة، وذاكرة لغة.

لم أفك طلسم بيت الشعر العربي، ولا أظن أنني سأفعل؛ لكن ثمة طلسم.

روى صديقي حكم عبد الهادي بيت زهير:

سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش

ثمانين حولاً، لا أبا لَك، يسأمِ

وقال: كيف بالله عليك تريدني أن أترجم البيت لأصدقائي الأجانب: رجل عاش ثمانين سنة فشعر بالملل؟!

الشعر ليس معنى فحسب؛ هو لغة صيغت ضمن قالب تجعل للكلام رنَّة يدركها ابن اللغة وتهزُّ وجدانه؛ فهل يهزُّ وجدان العربي القول: أأشبِّهكِ بيوم صائف، أنت أحَبُّ وأرق؟ هذا أشهر بيت لشكسبير في مطلع السوناتة الثامنة عشرة.

كل أمة لها مزاجها الشعري، ولا أمضي في هذا فأنا لا أتذوق الشعر الإنجليزي، ولا أمضي في حديثي عن طلسم الشعر العربي؛ لأنني لن أفكه، على أنني أتذوق هذا الشعر.

وقد تذوَّق الشعر العربي عبر القرون مئات الكتَّاب، وكتبوا عنه وانتخبوا منه الأبيات والقصائد، ومشروعي يقوم على انتخاب درر كل شاعر وشرحها شرحًا سهلاً لقارئ معاصر. لا أولي النكتة البلاغية أي اهتمام، فما الفائدة من قولي إن هذا تشبيه ضمني وهذه استعارة مكنية؟ ما أصنعه هو أنني أفضح المعنى فضحًا، وأكتب شرحي لكل بيت تحته ببنط أصغر. فمَن التوى عليه معنى البيت قرأ الشرح، وإلا فهو يمضي فيما اخترته من القصيدة. ومَنْ فهم البيت فهو يتذوق الاستعارات والتشبيهات وحده.

خذ ديوان ابن الرومي مثالاً: هذا الديوان يضمُّ ثلاثين ألف بيت، وهو مطبوع في ستة مجلدات كبيرة، قرأت الديوان مرة ومرة، ثم سللت منه ألفًا وخمسمائة بيت هي نحو خمسة بالمائة من مجموع

أبياته، وهي زبدة الزبدة، ثم شرحتُ كل بيت بسطر تحته.

فإن يأذن المولى أتممت مشروع الشيخوخة هـذا، وإن تكـن الأخرى فقد لهوت بما إن لم ينفع فلن يضر، على أنني بعد اسـتقالتي من الجزيرة لم أفرغ نفسي كل التفريغ لمشروعي الجليل؛ فقد مضيت أُنتج البرامج الإذاعية بتكليفٍ من معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، الذي أصبح اسمه مركز تطوير الإعلام، وقرأتُ كثيرًا، وترجمـتُ كتابًـا سياسيًّا عن الإنجليزية، ثم استُدعيتُ لرئاسة تحرير صـحيفة "الحيـاة الجديدة" المملوكة للسلطة الفلسطينية.

رئيسًا للتحرير

قبلتُ التكليف برئاسة تحرير "الحياة الجديدة" في رسالة من أربع صفحات؛ حدَّدت فيها موقفي من حرية الإعلام وفاعليته، وختمتها بالقول: إن كنتم تبحثون عن واجهة فابحثوا عن غيري. وقرؤوا الرسالة، وقالوا: على بركة الله.

للإعلام الرسمي قيوده، يفرض نصفها المسؤولون الحكوميون، ويتبرع الصحفيون بفرض النصف الآخر على أنفسهم.

في الحياة الجديدة تأكدت من فكرة أخرى كنت قد آمنتُ بها أثناء عملي في التدريب الإعلامي، وهي أن دور المهارات المختلفة عشرة بالمائة في صُنع الإعلامي الجيد، وهناك عشرة بالمائة للأخلاق، وثمانون بالمائة للحرية، ولن تصل أي مؤسسة إعلامية إلى المائة بالمائة؛ لأن لكل مؤسسة خطها التحريري الذي يُملي عليها أن تتجنَّب بعض الحقائق، ولئن وجب على الشاهد في المحكمة أن يضع يده على المصحف ويُقسم أن يقول: (1- الحق، 2- كل الحق، 3- ولا شيء غير الحق). فنحن نكتفي من الصحفي بأن يقول الحق، ولا شيء غير الحق. فأما "كل الحق" فمَنْ يقدر عليه! هل تظن أن محرري النيويورك تايمز يجهلون فظائع الاحتلال الإسرائيلي؟ لكنهم يكتبون بعض الحقائق دون بعض، ويجتهدون ألا يكذبوا.

عملت في هذه الصحيفة الرسمية ستة أشهر، كتبتُ افتتاحيات كثيرة على الصفحة الأولى وبتوقيع رئيس التحرير، ولن تجدني يومًا متنصلاً من كلمة كتبتها؛ فأما أنني استطعتُ توجيه الصحيفة الوجهة التي أريد، فهذا زعم كزعم الراية التي ترفرف في الرياح وتظنُّ أنها هي التي تحرِّك الرياح.

قدَّمتُ استقالة ناعمة لقيت الرفض مرة ومرة، ثم قُبلَتْ، وتركتُ العمل في "الحياة الجديدة" بعد ستة أشهر تعلَّمْتُ فيها الكثير، وحصيلة تجربتي أنني عملت مع فريق من المحررين والمصححين والمنضدين الممتازين، وسمعت من بعضهم السؤال: لماذا يا ترى يعمل المرء صحفيًّا في فلسطين سنوات طويلة ولا يحقق الكثير، فإذا خرج وعمل في مؤسسة عربية أو أجنبية أخرى لمع اسمه؟ ولم أُجب عن السؤال.

أرفض أن يكون الصحفي خائفًا مرتعشًا، وأريده شامخًا حرًّا، لا أنصحه أن يقول لرئيس وزرائه: "شت أب". كما فعل ذلك الرجل أندرو مار الذي قصصنا قصته في الصفحات الأولى من هذا الكتيب، فهذا ليس من اللياقة لا هنا ولا هناك؛ لكنني لا أحب الصحفي الخائف، وفي هذا المقام أروي قصة أنجح عددٍ من الصحيفة الرسمية التي عملت بها؛ هذا عدد 22 من نوفمبر/تشرين الثاني 2012.

وردت صورة من الوكالة للمؤتمر الصحفي الذي عقده بنيامين نتنياهو، وإيهود باراك، وأفيغدور ليبرمان عقب حرب إسرائيل على غزة، كان المؤتمر إيذانًا بوقف عدوان استمرَّ ثمانية أيام ولم يحقق أي شيء سوى قتل البشر، كانت وجوه الثلاثة ممتقعة، مسودة، وكانت الصورة بارعة.

في غرفة التنضيد قعدت للصفحة الأولى، وأشرت على المنضد بتكبير الصورة، فجعلها على ثلاثة أعمدة، قلت له: أكثر. فجعلها على أربعة، قلت له: بل على الثمانية أعمدة. واجتمع المحررون حول شاشة التنضيد، وعندما فرش المنضد الصورة على عرض الصفحة أكلت نصف الصفحة، رجع المحررون إلى الخلف، ابتعدوا بأجسامهم، وكأنهم يقولون: لا يد لنا في هذا الأمر. حركة تلقائية لاحظتُها، وارتجفت يدا المنضد: هذا شيء لم نصنعه قط. قلت له: الآن نصنعه. وأمليتُ عليه عبارة يكتبها تحت الصورة: (الثلاثي غير المرح.. الهزيمة في وجوههم). وخرجت الصحيفة في الصباح، ولوى بعض المسؤولين أشداقهم؛ ولكن رد الفعل كان صارخًا، وتوالت المكالمات الهاتفية، وعاد المسؤولون يُثنون على العدد أحسن الثناء.

بعد الاستقالة من الصحيفة، جلستُ في بيتي أقرأ كتبي وأطبخ للعائلة بضعة أشهر، ثم جاءني عرض من الجزيرة جديد، يحمل في طياته مشروعًا.

مرة أخرى في الجزيرة

لا أدري إن كان هذا الكتيب قد استحال إلى قائمة بوظائفي واستقالاتي! على أنني قصدت أن أروي بعض ما مر بي في مهنة الإعلام، وفي مهنة الحياة أيضًا.

مثلما تسير السيارة على أربع عجلات يسير الإنسان على أربع شهوات؛ يقر المرء بشهوة المعرفة، وقد يفتخر بها، تكون هذه الشهوة فضولاً لمعرفة أخبار الجار والجارة، وتكون تطلُّعًا إلى المزيد من العلم والأدب، سيان. والشهوة الثانية شهوة البطن، وهل يستطيع أحد إنكارها؟ والثالثة شهوة الجنس، ننكرها حينًا ثم نطأطئ الرأس ونقر بها، ونقول: هي فطرة فُطرنا عليها. والشهوة الرابعة الشهرة، وكلنا ينكرها؛ أُسهِّل على نفسي تجرع مُرَّ الاعتراف بشهوة الشهرة بتغيير اسمها؛ أسميها شهوة التأثير، كل امرئ يحب أن يكون له أثر فيمن حوله، وقديمًا مدح الشعراء الأمراء بأنهم يضرون وينفعون؛ سيان عند سليل الطين أن يؤثِّر في البشر بإصلاح حالهم أم بإلحاق الأذى بهم.

شهرة المذيع زائفة ما لم يكن صحفيًّا متمكنًا قادرًا على التأثير في وعي الناس وفهمهم، فأما إن كان صندوق صوت يقرأ ما يُعرض أمامه على الملقان، تلك الشاشة الملحقة بالعدسة، ويلقي بالأسئلة التي تُضخ في أذنه، فلا أثر له، وإن استوقفه الناس في الأسواق كي يتصوروا معه.

ولا لذة لامرئ في كل شهواته الأربع إذا احتواه الحفير؛ ولكن الإنسان يبقى له أرب في الدنيا ما بقي فيه نفَـس، أو كمـا قـال الشاعر:

تموت مـع المـرء حاجاتـه وتبقى له حاجـة مـا بقـي

وقد أدَّت بـي شهوة التأثير إلى تأليف قاموس معاصر؛ وهـذا هو المشروع الذي عُدت إلى الجزيرة كي أنفِّذه، كنت أبدأ العمـل قبل شروقها، ولا أترك لوحة المفاتيح إلا بعد غروبها، ومن الغلس إلى الغسق، وعلى مدى خمسة أشهر وضعت هذا الكتاب، وأنفقت مـن نور عيني ما الله به عالم؛ حتى أنفي عنه الأخطاء، فأتى في أبهى حلة، وقد جعلته دليلاً للإعلاميين ففرَّقت في تضـاعيفه شـتَّى المفـاهيم الإعلامية، وضبطتُ فيه المفردات مستعينًا بأمهات المعاجم القديمـة والحديثة، وتَقَبَّله أهل الجزيرة بقبول حسن، ووجدتُ بعد أيام مـن توزيعه أكثر من شخص قرأه كلـه بصـفحاته الـتي زادت علـى الأربعمائة، فاطمأنت نفسي إلى أنه ليس ذلك المعجم الجاف؛ وسميته "اللغة العالية"؛ لأنني تخيرت من أوجه الصواب أقواها.

وأكثر شخص أفاد من هذا الكتاب مؤلفه؛ فقد كان العمل فيه بالنسبة إليَّ جردة حساب مع ألفاظ لغتنا العربية، ليس أنه احتـوى كل مفردة، فهو قد أغفل الكثير؛ ولكن لأنه لم يغادر كلمة يشـك فيها المرء إلا أوردها على وجهها الصحيح، وهيهات لعمل كهذا أن يكون كاملاً، غير أنني لو كنتُ رأيت كتابًا يشبهه أو يقاربه ما كنتُ كتبته.

وفي قطاع ضبط الجودة في شبكة الجزيـرة الإعلاميـة رصـدٌ مُحْكَمٌ لما يتمُّ بثُّه، يستند إلى كتابين؛ واحد بشأن المعايير التحريرية،

وآخر بشأن المعايير الفنية وضعهما هذا القطاع، ويتمُّ رصد أداء المراسلين والمذيعين، والمنتجين أيضًا.

وليس من شأني أن أورد شيئًا عما يتمُّ رصده من جوانب مضيئة أو أخطاء؛ فهذا يتمُّ في سياقٍ معيَّنٍ؛ الهدف منه تحسين الأداء.

على أنني كنت في الماضي كتبتُ ورقة عن المذيعين، فيها نصائح مما يمكن أن يَرِدَ في ذهن المشاهد؛ وهذه الورقة تخص كل المذيعين في كل القنوات؛ مما جاء في تلك الورقة:

- خير ما يوصف به المذيع أنه إعلامي جيد، أما أن يكون الانطباع عنه أنه نصير الحق، أو حامي الوطنية، أو مُسْكِت السَّاسة فهذا منقصة لا محمدة.
- السؤال الطويل رديء، وأردأ منه بدء السؤال بمجموعة معلومات، ثم التسكُّع في الكلام بحثًا عن سؤال، ثم الانتهاء بالقول: فماذا تقولون في ذلك؟
- السؤال المزدوج رديء، وأردأ منه سلسلة الأسئلة المتعاقبة التي يبدؤها المذيع بسؤال ركيك يُدرك ركاكته فور الفراغ منه، فيردفه بسؤال آخر يوضحه، ثم ثالث يجمع شتاتهما، والنتيجة أن يسأل المذيع عن شيء مختلف تمامًا عما بدأ به.
- حتى لو كان السؤال مكونًا من كلمتين فقد يدل على حصافة المذيع وعمقه ومتابعته؛ ذلك أنه يأتي في مكانه بالضبط وينبئ عن حسن إصغاء ومتابعة.
- المقابلة التلفزية -طالت أم قصرت- هي سؤال وجواب، وليس للمذيع أن يقدِّم تعليقًا أو تقريرًا ضمن المقابلة، قصارى المذيع أن يسأل وبإيجاز وتركيز.

- إذا اشتبك ضيفان في مساجلة تفضح نقاط القوة والضعف في حجج كل منهما فخير ما يصنعه المذيع أن يُحسن الإصغاء إلى أن يخرج أحدهما أو كلاهما عن الموضوع؛ فيردهما إليه ثم يسكت. المشاهد يُدرك بغريزة شديدة الحساسية أن المذيع لم يصنع ذلك عن ضعف؛ بل عن فضل اقتدار.
- ما أكثر ما يستطيع السؤال أن يحمل من أغلاط: السؤال الغلط، للضيف الغلط، آتيًا في الموقع الغلط، منطوقًا بالنبرة الغلط. ليس نادرًا أن يكون عدد الأغلاط الصحفية في السؤال أكثر من عدد كلماته.
- ما يريده المذيع من الضيف إنما هو المعلومات أو الآراء أو كلاهما، فليقصد إلى مبتغاه بترتيب يُريح الضيف والمشاهد.
- المذيع الجيد يبدو مرتاحًا غير منفعل، وليس به من التوتر إلا القدر المحدود الذي تستدعيه الكاميرا؛ الانفعال والتشدد دليلا ضعف.
- ليس من حقِّ المذيع أن يسدد اتهامًا مباشرًا إلى الضيف بالمراوغة، فهو أصلاً لا يملك الحقَّ بالإدلاء برأيٍ. حسب المذيع أن يكشف في أقصر وقت ممكن عن عدم وجود جواب حرصًا على وقت المشاهدين وعلى إيقاع البرنامج. ليس له أن يقول للضيف: إذن فأنت لم تجبني عن السؤال. وأسوأ من ذلك أن يقطع المذيع المقابلة بتوجيه الشكر فورًا بعد اتهام كهذا.

- فرق شاسع بين أن يدرس المذيع ملف القضية ويلم بجوانبها ويكون فوق ذلك متابعًا الأحداث والتيارات المختلفة؛ فينطلق في أسئلته من أرض صلبة واثقًا مستخبرًا عن معلومات ومواقف جديدة، وبين أن يرتل أسئلة مرصوفة منتظرًا الفرج من الملقان.
- للضيف أن يكسب بعض الوقت للتفكير متكئًا إما على البسملة والتحميد -وهل نملك بإزاء ذلك شيئًا- أو بعبارات جوفاء من قبيل: "في الواقع إنه يجب في البداية العودة إلى أصل القضية". وللمذيع أن يُنظره إلى أن يزول ما بنفسه من وحشة؛ ولكن المذيع الذي عالج القضية موضع البحث علاجًا عميقًا سيحس عاجلاً بسؤال ملح وحقيقي؛ وهذا يُنقذ الطرفين من المراوغة.
- مقاطعة الضيف شرٌّ لابُدَّ منه؛ ليقاطع المذيع ضيفه الذي خرج عن الموضوع؛ مثلاً بسؤال قصير واضح مكوَّن من مقطعين، على أن يجعل وقفة قصيرة بعد المقطع الأول، يليها تكرار له تحايلاً على فارق الزمن مع ضيف عبر الأقمار.
- السؤال الذي يجتلب نعم أو لا رديء عمومًا؛ وهو يخلق ميلاً لدى المذيع لإتباعه بذيول تفتح باب القول للضيف، وفي الذيول آفات، وإذا اضطر المذيع إلى سؤال بـ "هل" فليتهيأ بسؤال آخر بعد تلقي الجواب القصير.
- ليست "يعني" و"إذن" و"في واقع الحال" قبيحة بنفسها؛ ولكنها تأتي في مواضع تكشف أن المذيع ضل طريقه؛ فقبحها قبح مستمد لا أصيل.

- أسلوب "التنعيم"، تكرار كلمة: نعم نعم، في آخر المقابلة كالكي. والمذيع الذي يكوي كل ضيوفه حقيق بالبحث عن وسائل علاج أخرى.
- قلَّ مذيع -أو إنسان- يخلو من التذاكي والتعالم والتفاصح والتفيهق؛ إنما يميز المذيع الجيد قلة حظه منها.
- أيسر ما يحتاجه المذيع عربيةٌ سلسة تأتيه عفو الخاطر، وسليقةٌ تعصمه من اللحن بأقل مجهود، حتى يشغل نفسه بموضوعه لا بالفتحة والضمة؛ لكن حاجة المذيع إلى النباهة التحريرية والثقافة العامة والمتابعة السياسية والمعرفة المعمقة بالملفات السياسية والاجتماعية الراهنة ماسة؛ وليس صعبًا قياس ما يملكه المذيع أو لا يملكه.. بضع مقابلات كفيلة بفضح بضاعته من كل أولئك.

أنا مَنْ ضيَّع في الأوهام عمره

يشيخ الصوت مع صاحبه، ولِصَوْت الشيخ رنة فيها صدقيَّة وفيها ضعف؛ فإذا صار المرء أدرد، فاقدًا الأسنان، فليس له على الميكروفون من سبيل إلا أن يتحدَّث في مقابلة إذاعية مع مذيعة شابة عن بطولات شبابه، وأرجو ألا يبلغ الخرف بي هذا المبلغ.

فهل يبلغ بي الخرف أن أغني؟

كنت وصفتُ لك علل صوتي، ومخارج حروفي، وقلتُ لك: إنني أرقع ذلك بحسن الأداء. فأنا أحدثك الآن عن صوتي وأنا أغني، ومن حسن حظك الآن أنك تقرؤني بعينيك، فلو سمعتني بأذنيك لولَّيْتَ رعبًا؛ ولكنني أعاني في آخر عشر سنوات من حياتي من هواية أصبحت فتنة، أصبحتُ ألحِّن، وأسرفت في ذلك إسرافًا ذريعًا، فألبست عشرات القصائد ألحانًا، وسمعني بعض الأصدقاء، ونفروا من غنائي نفورًا شديدًا، ولو وقف الأمر عند هذا الحدِّ لهان؛ فإنني راضٍ أن يغني لي الآخرون ألحاني، وهنا مشكلتي الأخرى، لقد عرضت ألحاني على نحو خمسة عشر شخصًا، فنفروا من الألحان، كلهم كرهوها من أعماق قلوبهم، وكلهم تحيروا كيف يقولون لي كلمة مجاملة بعد أن عرضتُ عليهم ألحاني، فمنهم مَنْ كان بارعًا فغيَّر الموضوع، ومنهم من أخذ يحملق في السقف باحثًا عن كلمة طيبة، ولهم مني جميعًا الاحترام لما أبدوه من أدب جمٍّ.

فهل يئستُ؟

ما أبعد ذلك عن الحقيقة.

لو نظر الناظر في كلامي نظرة موضوعية، ولو كان في مقدوري أن أنظر أنا هذه النظرة، لكان الحكم واضحًا؛ هذا وهم لا يليق بشيخ داخل إلى الستين.

ضيعت عمري في المقامات العربية من راست وهزام، وما بلغت سنَّ الشباب حتى رأيت الذوق ينصرف عن هذه المقامات، وعن كل الغناء القديم، و لم يسعني الانصراف؛ فقد تشكَّل ذوقي في هذا القالب.

وضيعت عمري في وهم الكتاب، فتعلَّقت به تعلقًا تشهد عليه صفحات هذا الكتيب كلها، وما بلغت سنَّ الشباب حتى أدركتُ أنَّ انصراف العرب عن الكتاب مرض مزمن، ثم جاء عصر الإنترنت، فاكتملت المسرحية فصولاً.

وضيَّعت عمري، أو على الأقل مئات الساعات الثمينة في صباي وأنا أبري القصب، وأتدرب على أنواع الخطوط العربية من نسخ ورقعة وتعليق، كنت أفرغ زجاجة حبر بعد زجاجة، وضاق جيبي عن هذه الهواية المكلفة؛ فكنت ألجأ إلى مطهر الجروح الأحمر -المكروكروم- فأكتب به، ولا يبقى عندي ورق فأفتح ظروف الخضار ذات الورق البني -كان هذا قبل أن نعرف في بلدنا أكياس النايلون- وأكتب عليها، ثم كسبتُ بعض القروش بالعمل في هذه المهنة؛ ولكنني أدركتُ أن عين العربي، مثقفًا كان أم عاميًّا، لا تُفَرِّق بين خطٍّ منضبط بالقاعدة وخطٍّ منفلت من قيدها، ونجَّاني من الاستمرار في الخطِّ العربي أنني لا أملك يدًا ثابتة تُبَلِّغني في فنِّ الخطِّ مرتبة عالية، ثم جاءت خطوط الحاسوب، فانصرف الناس عن الخطِّ العربي انصرافًا.

وضيَّعتُ عمري في إتقان الشعر العمودي بعروضه وفنونه؛ فإذا الأذن العربية لا تُفَرِّق بين منظوم ومنثور، وبارت سوق الشعر القديم.

وضيَّعْتُ عمري في درس النحو العربي، حتى لقد نظمت النحو في أرجوزة من مائة بيت، هذه فاتحتها:

بدْءًا يقولُ عارفُ الحَجَّاوي
لستُ بِنحْويٍّ ولا أنا بحاوي
لكنْ وجدتُ اليومَ نفسي قاعدا
فقلتُ: هيَّا فانظِمِ القواعدا
عشتُ على مائدةِ الفصحى زمنْ
فقد غدتْ وَلِيَّ نِعمتِي إذنْ
قد أكسبتنِي المالَ والمكانةْ
لكنَّها تحتاجُ للصِّيانةْ
سأُهملُ السماعَ والقياسا
لكنني سأحفظُ الأساسا
أساسُها القرآنُ والحديثُ
وشِعرُها ونثرُها الحديثُ

وهذه خاتمتها:

مجموعُ أبياتيَ في النحوِ مِئةْ
نزَّهتُها عن القُشُورِ الصَّدِئَةْ

إلى هُنـــا مَنظـــومَتِي في النَّحْـــوِ
والشَّرْحُ يَحـوِي كُـلَّ مَـا لم تَحْـوِ
فـــإنْ أَفَادَتْـــكَ فـــلا فضْـــلَ لِيَـــهْ
فـــــإنَّنِي نَظَمْتُهـــــا للتَّسْـــــلِيَةْ

وبين الفاتحة والخاتمة حشرتُ قواعد النحو؛ وهذا كله إمعان في الجري وراء السراب؛ فالناس لا تفهم النحو مـن منظـوم ولا مـن منثور، والنحو كله ينتظر ثورة كبرى، قد لا أحضرها.

ولا أقول: إنني ضيعت عمري في حب اللغة العربيـة ومحاولـة خدمتها. فأنا متيقن من أنها أداتنا الوحيدة للنهوض المعرفي، والعلمي خاصة. ولو قُيِّض لي أن أعود شابًّا في العشرين لاستفرغتُ جهـدي كله في خدمة اللغة العربية؛ فمهما كثر مـن حولـك المتكلمـون بالعبارات الأجنبية، ومهما شعرتَ أن المدارس الأجنبية والجامعـات الوطنية والأجنبية على السواء تلجأ إلى اللغات الأوروبيـة لتـدريس علوم الطب والهندسة والكيمياء، فهذه قشرة؛ إنمـا يُرسـل النـاس أولادهم إلى المدارس الأجنبية لأن نظامنا التعليمي العربـي مكبَّـل بقيود السطحية والرجوعية والقمع والإهمال وفقدان الاتجاه، ينظـر المرء إلى طريقة تعامل المدارس الأجنبية مع التلاميذ، والوسائل الـتي تستعملها هذه المدارس لترغيبهم في البحث، والتزامهـا بـالأخلاق العامة والنظافة، ومراعاتها للتلميذ الضعيف، وفتح مجالات الفنون أمام التلاميذ، ولا يستطيع أحد أن يلوم أبوين أرسلا أبناءهمـا إلى هـذه المدارس؛ وفي الحالات القليلة التي اتبعتْ فيها مدارسُ عربيةٌ تستعمل اللغة العربية في كل الدروس تلك الضوابط في التعامل مع التلاميـذ

كانت النتائج باهرة، المسألة ليست مسألة لغة -كما كان قال لي الأستاذ شرويدر في سياق مختلف- بل مسألة منهج.

هذه وقفة "لو". والآن لا قِبل لي بلو، وسأمضي في أوهامي على الطريق الذي رسمته الأقدار؛ غير أنني أتسلَّى في هذه الحياة بالعبث، وانتقم من نفسي ومن قدري بأن أحمل الأشياء على محمل الهزل؛ راجيًا من الله حسن الختام.